# سرد سيرة الذات في الترجمة الأدبية
# قلائد العقيان للفتح بن خاقان أنموذجًا

د. ياسر بن غازي الطيب
أستاذ مساعد، قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية والدراسات الإنسانية، الجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

# سرد سيرة الذات في الترجمة الأدبية قلائد العقيان للفتح بن خاقان أنموذجًا.

د. ياسر بن غازي الطيب

أستاذ مساعد، قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية والدراسات الإنسانية، الجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

تاريخ تقديم البحث: ٦/ ٩/ ١٤٤٥هـ تاريخ قبول البحث: ٢٦/ ٣/ ١٤٤٦هـ

**ملخص البحث**

عُني هذا البحث بتتبع البعد السردي في مصدر تراجمي قيم، وهو كتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لمؤلفه الفتح بن خاقان. ترجم الفتح لعدد من أعلام الأندلس المعاصرين له، ووضعهم في طبقات اجتماعية، مراوحًا في أثناء ذلك بين سرد سيرة الغير في الترجمة، وسرد سيرته الذاتية وهو يحكي شطرًا من حياته مع من يترجمهم، وقد تتبع البحث هذا التداخل مستحضرًا طبيعة تأليف التراجم الأدبية التراثية، وحللها لاستظهار العلاقات السردية، وانبثاقها من العلاقات الاجتماعية، ومدى اشتغال الفتح بتدوين سيرته الذاتية وهو يضع الطبقات ويصف الجماعات، ويورد تجاربه وموقفه منها، وقد توصل البحث إلى نتائج سردية ولغوية وموضوعية على مستوى المترجَم، والترجمة، والمترجِم، والمترجَم له تسهم في الكشف عن تقنيات تدوين السيرة في تراث الأدب العربي.

**الكلمات المفتاحية:** قلائد العقيان، الفتح بن خاقان، سيرة الغير، سيرة الذات، الترجمة الأدبية.

# A Case Study of Al-Fatḥ bin Khāqān's Book Qalā'id Al-'iqyān as an Example of a Literary Biography

**Dr.** Yasir Ghazi Altayeb
Assistant Professor, Department of Literature and Rhetoric, College of Arabic Language and Human Studies, Islamic University in Madinah, Kingdom of Saudi Arabia

**Abstract**

The research focused on analyzing the narrative elements found in a significant biographical work, specifically Qalā'id Al-'iqyān and Maḥāsin al-a'yān, by Fat-ḥ bin Khāqān. Bin Khāqān delved into narrating the life stories of various notable Andalusian literary figures, placing them in different social contexts. Throughout the text, he intertwined his own life story alongside those he was narrating, offering a unique perspective on traditional literary biography practices .

The study explored the connections between narratives, the depiction of social dynamics. It also explores how the biographer incorporated his personal experiences, beliefs and viewpoints into the classification of social classes and depiction of various groups. The conclusion sheds light on the narrative, linguistic, and objective aspects of the biographies, autobiographer himself, and the individuals involved, contributing to a deeper understanding of recording biography in Arabic literary heritage.

**Keywords:** Qalā'id Al-'iqyān, Fat-ḥ bin Khāqān, biography, autobiography, literary biography

**مقدمة**

يتناول البحث حضور السيرة الغيرية، والتباسها مع كتابة الذات، وجماليات الخطاب التاريخي التراجمي، وانطباق مبادئ الكتابة السيرية عليه، واختار البحث كتاب قلائد العقيان من مشروع الفتح التراجمي، متوخيًا الكشف عن محاولة الفتح في تأريخ السيرة الغيرية، وتفسير أدواتها من خلال معرفة تمكننا من النظر إليها من زاوية مختلفة، فالمعالجة التي ينتهجها البحث تأمل أن تثري النص القديم وتبين قابليته، وحياته الممتدة، مع الوعي بطبيعة التأليف القديم، ومدى تداخل الجنس الأدبي فيه، والتباسه، والبحث هنا لا يقرر هوية جديدة للنص، ولكنه يستظهر جانبًا من جوانبه.

تظهر أهمية هذا البحث في استظهار البعد الفني في التراجم التاريخية التي توفر الجانب السير غيري، وصورة الآخر/الغير المختلف عن الذات/الأنا، التي تحدد ما بين الخطاب التاريخي والأدبي في كتابة الترجمة، وبخاصة في أنموذج الفتح الذي صار علمًا عليه، فترجمة الفتح تمتح من الذاكرة الجماعية الأندلسية، وتنقل تصور المجتمع الأندلسي عن الغير بمستوياته المختلفة، لاسيما وأن تراجم الفتح أكثر جرأة من تراجم معاصريه كما نبه السابقون، وقد ظهر أثرها فيمن ترجم بعده. إضافة إلى ما سبق فإن الفتح ترجم ذاته، وكتب سيرته بطريقة مباشرة وغير مباشرة، فأصبح سرد الفتح سردًا مدمجًا: سرد الغير، وسرد الذات.

يتتبع البحث النوع الأدبي، وديناميكيته، مما يستلزم النظر إلى مقومات الجنس الأدبي وتوافرها في النص ومدى تداخلها مع غيرها، وقد اعتمد تحليل النظام السردي المتحقق في ترجمة الفتح بن خاقان التي تعد عملًا رئيسًا في وضع تراجم الفتح ضمن فن السيرة. وخضعت دراسة المترجَم لمقولات تاريخية وثقافية تسهم في الكشف عن ملامح الغير/الذات عند الفتح. وقد وجهت مسار البحث أسئلة هي: كيف جاءت

سيرة الغير نصًّا سرديًّا؟ كيف شكل الفتح بن خاقان الغير؟ ما علاقة كتابة الغير بكتابة الذات بوصفها سيرة؟

يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: البعد السردي في سيرة الغير.
- المبحث الثاني: سرد الآخر.
- المبحث الثالث: سرد الذات عند سرد الغير. ثم الخاتمة وأهم النتائج.

## تمهيد

عرف فن السيرة العربي أشكالًا للسير منها: التراجم، والسير الموضوعية، والسير الذاتية[١]، تكتب التراجم والسيرة الموضوعية عن الغير، الأولى موجزة والأخرى مفصلة، وسيرة الغير هي الشق الآخر من سيرة الذات، ففي كتابة الذات يتحد المؤلف مع الراوي والشخصية الرئيسة، وفي كتابة الغير يعرض المؤلف شخصًا غيرًا، هذا الغير هو آخر مختلف عن الذات.

ظهر تدوين السيرة الغيرية العربية في زمن أسبق من السيرة الذاتية، ذلك أن السيرة الغيرية ناجمة عن التراجم التراثية التي تقوم على عدالة الشخص في البعد الأخلاقي، ضمن منظومة الترجمة الملزمة بشخصية مشهورة، تنظم في سلك آخرين ممن يترجم لهم ويجمعهم المكان أو العلم أو المهنة أو غير ذلك مما ينظمهم. وهي قائمة على نظام الجمع، وأركانها المولد والنشأة والأخبار والأخلاق ثم الوفاة.

ظهر الاتجاه لترجمة الأدباء مع بدايات تدوين الأدب يقول أحمد أمين: "وأكثر الذي نعرفه من ضروب التأليف القديم في الأدب نوعان: نوع أسس على تراجم الرجال كالأغاني ومعجم الأدباء وطبقات الشعراء ويتيمة الدهر، ونوع أسس على المختار من المنظوم والمنثور كالذي ذهب إليه الجاحظ في البيان والتبيين والكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبدربه"[٢]. ولم تتخلص الترجمة الأدبية من أسلوب تراجم رجال الحديث والتاريخ إلا في زمن متأخر، فهي تراجم تقليدية تضطلع بمهمة الإفادة عن الأشخاص والتعريف بهم بما هو متوفر لدى أهل الصنعة، ظهر هذا عند رجال

---

(١) ينظر: إبراهيم، عبدالله، السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص١٣٠.

(٢) أمين، أحمد، تراجم الرجال في الأدب العربي، مصر: مجلة الثقافة، ع ٤٠، أكتوبر ١٩٣٩م، ص ١٣.

علوم القرآن والحديث إذ دعتهم الحاجة إلى توضيح سلسلة الأشخاص من أجل بيان ما حققه الرجال من تقدم في علمهم ومدى ما يتسمون به من وثوقية، وظهرت معها الحاجة إلى طبقات تترجم للأعلام في عِلم واحد وفن واحد مثل طبقات الشعراء والنحويين والقضاة وغيرهم.

وقد ظل مفهوم السيرة الغيرية مرتبطًا بمفهوم الترجمة ببعدها التاريخي، فابن خلكان يورد ترجمة ابن شداد لصلاح الدين الأيوبي بلفظ سيرة، وعندما يعرج إلى ما كتبه عن السلطان صلاح الدين يقول: "ثم ذكرتها في ترجمة صلاح الدين يوسف بن أيوب فتطلب هناك..."[1]، فالترجمة صورة من صور كتابة سيرة الغير[2].

**بعد السيرة الغيرية/الذاتية في تراجم الفتح بن خاقان:**

**الفتح بن خاقان:**

هو الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان القيسي، أبو نصر، أديب وكاتب ومؤرخ ولد ونشأ في إشبيلية وإليها يُنسب، وكان كثير الأسفار والرحلات، وصفه ابن خلكان بقوله: "خليع العذار في دنياه لكن كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال"، كان ابن خاقان موضع جدل في عصره، وقد مات في ظروف غامضة، وصاحب موته عدة قصص أشهرها أنه مات ذبيحًا في فندق بمدينة مراكش ليلة عيد الفطر من سنة ٥٢٨هـ، بأمر من علي بن يوسف بن تاشفين، وللفتح مصنفات

---

(١) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ١٤١/٥.

(٢) الغامدي، صالح معيض، كتابة الذات-دراسات في السيرة الذاتية، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٣٥.

عديدة أهمها قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، وترجمة ابن السيد البطليوسي[1].

**قلائد العقيان ومحاسن الأعيان:**

يعد كتاب قلائد العقيان من النوع الأول من ضروب التأليف القديم في الأدب، ولئن كتبت السيرة العربية عن الغير في التراجم الموجزة، والتراجم المستفيضة (السيرة الموضوعية)، فإن الفتح أفاض في بعض تراجمه وأوجز في بعضها، وما كتبه الفتح يستقر في بقعة واضحة بين التراجم والسيرة الموضوعية.

سُبق الفتح بسلسلة من التراجم الأندلسية مثل جذوة المقتبس للحميدي، وبغية الملتمس للضبي والصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار وتكملة التكملة، وقد أخذت هذه السلسلة اعتبارها من استدراكها فهي عمل ممتد يتممه اللاحق في زمنه، لأن الهدف منها: (تقييد اللحظة التاريخية)، وقد اشتدت المنافسة في القرنين الخامس والسادس بين الفتح بن خاقان وابن بسام في صنع الخطاب التاريخي، فتفوق ابن بسام باهتمامه بالبعد التأريخي، وتفوق الفتح بخطاب ذي بعد أدبي. وقد حاولت التجربتان تقريب ما بين التاريخي والأدبي في السيرة، وجاءت فيما بينهما لتحل إشكال الجمود التاريخي، مالئة فراغاته وصراعاته بالمتلقي ذاته، وتستجيب لمنظور جديد، لا يغير الحقيقة التاريخية، وإنما يشرّحها ويؤلها والأهم من هذا أنها عند الفتح محاولة لإنقاذ الأدب بأدوات الأدب نفسه كما ألحّ على ذلك في مقدمته.

---

[1] ينظر: الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، ١٣٤/٥.

دون الفتح في كتابه السيرة والتاريخ للملوك والأمراء والوزراء والكتاب البلغاء وأعيان القضاة والفقهاء والعلماء ونبهاء الأدباء، من أهل الأندلس المعاصرين له، وقسمهم على أربع طبقات: الملوك والأمراء، ثم الوزراء والكتاب البلغاء، ثم أعيان القضاة والفقهاء والعلماء، ثم نبهاء الأدباء، وقد بلغ عدد الترجمات ثمان وسبعين ترجمة. بيّن الفتح بن خاقان في مقدمة القلائد والمطمح أن شخصيات مرموقة وراء تأليفهما؛ فإنه توجه بالقلائد –برغبة ذاتية– إلى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين: "رأيت أن أخدم مجلسه العالي بزف الكتاب إليه"[١]، وفي المطمح فإن رغبة خالصة من الوزير أبي العاص حكم بن الوليد حثته أن يؤلفه، ومع ذلك يُظهر الفتح ذاتيته حين يقول إن النشاط واتاه للاستجابة لطلب الوزير فنفذ ما رغب به لإسعافه[٢] فهي رغبة الوزير التي وافقت نشاطًا عند الفتح، ثم رجع ليخبر أن هذا الكتاب سيبقى فخرًا للأندلسيين إن احتاجوا إلى مفاخرة الآخرين. يمكن تفهم محاولة الفتح بن خاقان في قلائده، وكذلك ابن بسام في ذخيرته، في إذاعة التفرد الأندلسي الذي يواجه مقولة المشارقة عن كتاب العقد الفريد لابن عبدربه: "هذه بضاعتنا ردت إلينا".

تمتاز تراجم الفتح على تراجم من تقدمه بميزة الكتابة الأدبية، فعمله لا يتوقف على الترجمة للأشخاص، بل أسلوب تقديمها بدءًا من اللغة وانتهاء بمكونات الشخصية التاريخية، وصراعاتها النفسية والخارجية، وهي تنبذ الإسناد في الغالب الأعم، وتتحقق فيها شخصية المؤلف، وتحررها في اختيار المترجَم، وتتخلص من

---

(١) ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن عبيدالله، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين خريوش، إربد: الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٤٧.

(٢) ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن عبيدالله، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٤٨.

المنظور التاريخي المتمحور حول الأحداث والغايات العقدية والأخلاقية كما وردت في القرآن والسنة وقصص السابقين، ثم الغايات العلمية كما في الطبقات والجرح والتعديل، وتحتفي بالمنجز النثري والشعري الذي يؤكد الفردية الأندلسية.

**الذات والغير:**

يعد الحديث عن الغير بطريقة ما حديثًا عن الذات، وتنهل الذاكرة في الحديث عن الغير، والحديث عن الذات من ذاكرة انتقائية، فالأولى تتوخى الأثر، والثانية يصعب عليها قول الحقائق كاملة. ودور الذاكرة مهم في تمييز ما بين السيرة الغيرية والذاتية، وهو ما وضحه جورج ماي عند تفريقه بينهما من ثلاث جهات: دور الموت، ودور الذاكرة، ودور ترتيب المادة[١]، وفي آليات استحضارهما؛ إذ تنطلق في الذات من الداخل إلى الخارج، وفي الغير من الخارج إلى الداخل[٢].

يسهم تحديد لوجون لمفاهيم السيرة الذاتية في استيضاح ملامح السيرة الغيرية عند الفتح، فقد وضع لوجون حدًّا للسيرة الذاتية، يشتمل العناصر الآتية[٣]:

١. شكل اللغة: حكي، نثري.

٢. الموضوع المطروق: حياة فردية، تاريخ شخصية معينة.

٣. وضعية المؤلف: تطابق المؤلف والسارد.

---

(١) ينظر: ماي، جورج، السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي وعبدالله صوله، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط ٢٠١٧م، ص ٢٤٥.

(٢) ينظر: عباس، إحسان، فن السيرة، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٢.

(٣) ينظر: لوجون، فيليب، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ٢٢.

٤. وضعية السارد: تطابق السارد والشخصية الرئيسة، المنظور الاستعادي للحكي.

يظهر من كلام لوجون أن ثمة عناصر تمثل الحد بين السيرة الذاتية والغيرية، فانعدام التطابق بين المؤلف والسارد، وبين السارد والشخصية الرئيسة لا يجعلها سيرة ذاتية: "فالتطابق إما أن يكون أو لا يكون، لا وجود لدرجة ممكنة، وكل شك يقود إلى نتيجة سلبية"[١]، وهذا التطابق المنعدم في السيرة الغيرية دفع شكري المبخوت إلى جعله الحد الذي يسقطها من مفهوم السيرة الذاتية: "يقعد انعدام التطابق بين الراوي والشخصية الرئيسة بالسيرة الغيرية عن أن تكون سيرة ذاتية"[٢] على أن ذلك يفيد في وضع ملامح مميزة للسيرة الغيرية بعد تثبيت الصفة السالبة، فتكون السيرة الغيرية واجبة عدم التطابق بين الشخصية الرئيسة والسارد، ويضاف إليها بقية الحدود المتعلقة بشكل اللغة، والموضوع المطروق وتطابق المؤلف والسارد.

وبالإفادة من لوجون يمكن تحديد السيرة الغيرية من خلال العلاقة الآتية: "المؤلف هو السارد، والشخصية تشبه النموذج"[٣]، فالمؤلف هو الفتح، والسارد هو الفتح نفسه، والشخصية المترجَم، والنموذج هو الواقع الذي يزعم الفتح أن المكتوب يشبهه، لا يطابقه، وهي تتكلم عن زاوية نظره بوصفه مؤلفا، ومع ذلك ينبغي تفهم دور السارد في تقديم النموذج لا في موقعه من الماضي، ولكن في حاضر التلفظ.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) المبخوت، شكري، سيرة الغائب سيرة الآتي، تونس: دار الجنوب للنشر، ط١٩٩٢م، ص ١٦.

(٣) لوجون، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ الأدبي، ص ٥٧.

تعد كتابة الغير كتابة مرجعية، فهي تعيد صياغة التجربة من وجهة النظر الخاصة، وهي مثل أي نص مرجعي يحتوي على "الميثاق المرجعي"[١]. واستنادًا على ذلك أن نحاكم الميثاق المرجعي في السيرة الغيرية بالمعلومات الأخرى، ومدى مشابهتها للنموذج. وقد دون الفتح الميثاق في مقدمة القلائد: "أظهرت ما خفي من آثارهم، ودللت على مراتبهم في المعارف وأقدارهم، واستثبت في انتقاء ما أثبت، وانتخبت ما جلبت، وشنفت ما صنفت"[٢]، وهذا دأبه فقد كتب في مقدمة المطمح: "بالأندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام... ثم هووا في مهاوي المنايا... وبقيت مآثرهم الحسان غير مثبتة في ديوان، ولا مجملة في تصنيف أحد من الأعيان... وذهبت إلى إبدائها وتخليد عليائها"[٣].

(١) ينظر: لوجون، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ الأدبي، ص ٥٢.

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٤٥.

(٣) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ٤١.

## البعد السردي في سيرة الغير

يستعين كاتب السيرة بالمقومات السردية التي تجعل كتابته متسلسلة ومتصلة، وفيها يحول حكايته من وجودها الواقعي إلى آخر يرتكز على التخييل، ثم يقتص الأحداث، فيعين وينتقي وينسق ثم يسرد، وهو ما عمد إليه الفتح حين كتب تراجمه، تتضح سردية سيرة الغير من خلال النص المحيط، والمكونات السردية.

### أ- النص المحيط:

**-العنوان:** توجه العناوين علاقة ابن خاقان بمن سيكتب عنه، فوضع عنوانه: (قلائد العقيان ومحاسن الأعيان) قام هذا العنوان على التوازي اللغوي والصوتي، وضعه الفتح معتدًا به كاعتداده بقلائد من الذهب الخالص[1]، وقد صيغت بوصفها حلية توضع حول العنق، وعطفت الفقرة الأخرى من العنوان على الأولى وهي محاسن الأعيان أي الصفات الحسنة لأشخاص معينين، ويظهر أن ما سيقدمه في كتابه هي المحاسن لا غير، لأعيان في مكان وزمان ومجتمع محددين، لن يتوقف العنوان عند هذا الحد، فهو عنوان له استمرار في عبارات غير منطوقة تتسق مع ما وضعه الفتح لموافقة السجع، تغيب هذه العبارة الموضحة لمن سيجمع بين قلائد الذهب، ومحاسن الرجال ليسبكها سوية، وهو (الفتح بن خاقان) وهكذا يكتمل العنوان وتكتمل دلالاته ونغمه. وقلائد على وزن فعائل جمع كثرة تعني أنها مجموعة من القلائد لا نهائية، ومحاسن صيغة منتهى الجموع، والمقصد غزارتها، وهي تخبر أن ثمة مساوئ لن تذكر وسيكتفى بالمحاسن عن غيرها. هذا أسلوب الفتح المعتمد في عناوين ترجماته فقد

---

[1] ينظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وجماعة، بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، مادة (قلد) ٣٦٦/٣، نخبة من اللغويين، المعجم الوسيط، القاهرة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية، (العقيان) ٦١٨/٢.

جاء كتابه الآخر المطمح بعد القلائد استدراكًا وتوسعًا، ويظهر أن ما كان باسم الجمع قلائد لا نهائية تحول في المطمح إلى مفرد، وما أخذ صفة الحكم في أنه ذهب، تحول إلى لغة أقل تزويقًا فالنفوس تطمح إليه والأنظار ترنو إليه، وتتجمهر أمام صانع العرض الذي سيخلق مسرحًا للتأنس وهذا الوزن على مفعل بفتح العين اسم للمكان، وهي دعوى من الفتح للإقبال على معرض الفن والأنس، وستكون مادته هي ملح أهل الأندلس، ليس أعيانها فقط كما في القلائد، وتدور أخباره في فلك جمع الكثرة، المحاسن هناك، والملح هنا، وهي على وزن فُعَل وهذا بحد ذاته خطاب ضمني يقول لآخر غائب، معاصر أو لاحق: إن الأندلسيين لهم ملح ومحاسن وهي عديدة لا تُحصى، وقد قال في مقدمته المقتضبة إنه ألف كتابه ليجعله ذخرًا للأندلسيين يساجلون به أهل العراق، بل سيحاسن بذلك الشمس وما تطلع عليه من المشرق[1].

**-الترجمة حسب الطبقة:** قسم الفتح كتابه إلى عدة أقسام ليترجم بعدها للغير، واختار لكل قسم اسمًا خاصًّا به، بما يرادف مفهوم الطبقة، وبنى طبقاته على المكانة الاجتماعية، فجاءت القلائد على هذا النحو:

- محاسن الرؤساء وأبنائهم، ودرج أنموذجات من مستغرب أنبائهم، وهم ٦ رجال.
- غرر علية الوزراء وفقر الكتاب والبلغاء، وهم ٣٤ رجلاً.
- لمع أعلام القضاة والفقهاء، ولمح أعلام العلماء، ١٨ رجلًا.
- بدائع نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء، ٢٠رجلًا.

[1] ينظر: ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ١٤٩.

وشابهت قسمته في المطمح القسمة السابقة فجاءت على الآتي[1]:

- غرر الوزراء وتناسق درر الكتاب والبلغاء، وهم ١٦ رجلًا.
- محاسن أعلام العلماء وأعيان القضاء والفقهاء، وهم ١٨ رجلًا.
- محاسن الأدباء النوابغ النجباء، وهم ١٤ رجلًا.

يظهر من القسمتين أنهما بُنيتا على مترجَم/آخر يتميز بموقعه الاجتماعي، بما أوتي من معارف وفنون، هذا الآخر يطل على آخر غريب غير آخر المترجَم، ومنها يدخل إلى عوالم آخرية تناقض الأنا ونحن وتواجه المختلف والمغاير، عبر دوائر ومستويات يفضي بعضها إلى بعض، ويتشكل أطرافها بحسب الموضع والموقف.

**-من المشافهة إلى الكتابة:** اعتمدت التراجم التي أوردها الفتح على جملة من الأخبار التي تكون الصورة السردية للمترجَم، فالأخبار التي ينقلها الفتح تعتمد نظام الرواية التقليدي الإسنادي في حكاية الخبر، لكن الفتح في طريق تحويله النص من المشافهة إلى الكتابة يُعمل أدواته السردية في تسريع الإيقاع وإبطائه فيقول ناقلًا خبرًا عن ابن السيد البطليوسي: "وأخبرني أنه حضر مع المأمون بن ذي النون طليطلة في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح إليها المنى، ومرآها هو المقترح والمتمنى، والمأمون قد احتبى، وأفاض الحبا، والمجلس يروق كأن الشمس في أفقه، والبدر في مرفقه، والنور عبق، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق، والدولاب يئن كناقة إثر الحوار، أو ثكلى من حر الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه والروض قد رشته أنداؤه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواهها"[2]. وفي أثناء الانتقال من الشفاهي إلى الكتابي يراعي الفتح ما اشترطه في مقدمته، فالتراجم متفرقة لكنها تنتظم في عقد واحد، وتحمل

---

[1] المصدر السابق، ص ١٤٨.

[2] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٧١٤.

ذات الوظائف التي وعد بنقلها نقلًا مختلفًا يدل على تميزه اللغوي والبلاغي يقول: "وضممتها (أي التراجم) إلى صوان يحفظها، وديوان يبديها للعيون فتلحظها، ليعلم أن بالأوان افتنانًا، جرت له العوائق بنانًا وبيانًا"[1]، وأن يحول تراجمه إلى التخييل الذي لا يضيع معه بعد الواقعة متمثلًا في الإسناد، ومراعيًا موضوعية الخبر، ومؤسسًا لأبعاده السردية التخييلية.

هذه المهمة معقدة، وهو ما اعترف به الفتح وهو يستحضر تحول الشفهي إلى المكتوب، ومدى التعامل مع النظرية التي تسوغ الشفاهية أمام الكتابة[2]، ولذا وضح مراعاته للأصول التي تحول المنطوق إلى مكتوب، وحيث إنه لا بد من الإقناع بصدق ما سيورده، وزوايا الكتابة بحضور الكاتب، وتؤكد المشافهة والمواجهة مع الناقل للخبر الصدق أو تنفيه لما يستصحب ذلك من علامات يميزها مستقبلو الخبر.

### ب- مكونات السرد:

تتكون تراجم الفتح بن خاقان من الشخص الذي يترجم وهو الراوي، والذي يترجم عنه وهو المروي، والذي كُتبت التراجم له وهو المروي له.

**-المترجم/الراوي**[3]: وهو تحول من المؤلف إلى صوت يقدم الحكاية منفصلًا عن مؤلفه، فمترجِم سارد يصف الأحداث ويقدم الشخصيات وفق منظوره الخاص، ويكشف عن نفسه حينًا ويتقنع حينًا آخر، وقد فرض سياق الخبر السردي مسافة

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) إبراهيم، عبدالله، السردية العربية، ص ٣٤.

(٣) ينظر: إبراهيم، عبدالله، السردية العربية، ص١١.

الرؤية من الخلف[1]، وظل الراوي يسرد الترجمات وفق هذا النظام دون إقامة نظام تبادلي بين الرؤية مع، والرؤية من الخارج فالتزامه الواضح بتقديم خبر يضمن تعزيز قدرته على تحمل الميثاق المرجعي، وهذه السمة العظمى في أغلب مروياته، غير أن مشاركة الراوي في أحد الأخبار تضلل بانتقال الراوي إلى نسق الرؤية مع، وسرعان ما تتحول إلى نسق الرؤية من الخلف وفي النموذج الآتي يظهر ذلك فالراوي يتحدث عن الوزير أبي محمد بن مالك ومشكلات عرضت له وموقف الأمير معه فيقول: "وخرجت بإشبيلية مشيعًا لأحد زعماء المرابطين، فألفيته معه مسايرًا له في جملة من شيعه؛ فلما انصرفنا مال بنا إلى قصر أمير المسلمين الذي ينزله عند حلول إشبيلية وهو في موضع مستبدع، وكأن الحسن فيه مودع، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم..."[2] إلى أن يتجه الخبر إلى طمأنته حيث يطلب منه بيت شعر فحسب.

ويُلحظ إلحاح السارد على الأسلوب الموضوعي في السرد، فخبره بسيط، ولا يشرح كيف تم الخبر ولكنه يُظهر ما يوحي بإحاطته بالأحداث الخارجية ومضمرات الشخصيات فيقول في ترجمته للمتوكل وحكاية قصة مقتله: "أخبرني أحد قاتليه أنه رغب في تقديم ولديه بين يديه، ليحتسبهما حسنة تمحو بعض ذنبه... وقام المتوكل عند صرعتهما، مختبلاً من لوعتهما، ليصلي وقد أفرط في ملامه، وتشطط في كلامه، واختلط افتتاحه بسلامه، فبادروه بأسنتهم في الصلوة، وناهشوه مناهشة الطير لقتيل الفلاة، حتى خر لا لسجود، واستلقى لغير هجود"[3]. تتحدد في النص السابق المسافة السردية ضمن إطار الخطاب المنقول بأسلوب غير مباشر، وهذا الأسلوب

---

(١) جنيت، جيرار، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص ٢٠١.

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٥٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢.

يعتمد عليه الفتح حين يستفتح بعبارات من قبيل: أخبرني وحدثني، وهكذا يصبح التعبير أيضًا من تعبير الفتح نفسه؛ إذ يبدو التحقق من حرفية النقل عسيرًا كيف وهو يستبعد الحوارات ولا يتيح لشخصياته مساحة كافية لحرية التعبير والكلمة، بل إنه أعاد صياغة ما قالوه ليتوافق مع صياغات الفتح الأخرى في ترجماته.

وقد يتكثف حضور المترجم/الراوي فيشارك في أحداث القصة، أو يضطلع بدور رئيس فيها فيسرد سردًا متجانسًا فيكون الراوي الشخص الأول، وتتحكم الأنا بتوجيه السرد، بالمشاركة أو المشاهدة، أو يختلف عالم السرد عن عالم الفعل فيتحول إلى سرد غير متجانس، وقد تعزز حضور هذا الشكل في الترجمة لأنه يحكي عن شخص ثالث، تحتكم هذه المراوحة إلى العلاقة بين الراوي والمترجَم، فكلما كانت العلاقة التاريخية بينهما قريبة أو متصلة علا صوت السارد المتجانس، وكلما ابتعدت خفت هذا الصوت، فترجمة المتوكل على الله أبي محمد تبرز السارد عن شخص ثالث، فالمتوكل وقع له كذا، وفعل كذا، لكن الراوي يروي عن شخص آخر وهذا الآخر متجانس حيث إنه في حالة المتوكل أحد قاتليه، ووزيره ابن القبطرنة، ووزيره ابن عبدون، وجليسه ابن زرقون[1]، وفي ترجمة ابن خفاجة يظهر السارد متجانسًا حيث تنتفي العلاقات الأخرى فهو يتصل به مباشرة ويتلقى منه شخصيًا فيقول السارد :"بلغه أني ذكرته" و"كتب إلي معاتبًا" و"حتى نشر لي ما طواه"[2] فالراوي لا يبتعد عن المترجَم ولكنه يشاركه. إن سيطرة الراوي على خطاب الترجمة المسرود، نابع من مشاركته فيها، وهذه المشاركة قد تكون مباشرة أو غير مباشرة، بالمشاركة في أحداثها أو تبني وجهة نظر حولها. يرغب الراوي في إكساب مروياته الصدق،

---

[1] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ١٢٠.

[2] المصدر السابق، ص ٧٣٩.

فهو يسند في كثير من ترجماته إلى أشخاص معروفين غير مجهولين، ويذكر أسماءهم بلفظ يتواتر في جميع مروياته، وهو لفظ الإخبار "أخبرني" وهي طريقة من طرق الرواية في إسناد المنقول الذي هو خبر قد يكون سماعيًا أو كتابيًا، لكنه في كلا الحالين تعاد صياغته بطريقة تنسجم مع أسلوب الراوي.

**-الترجمة/المروي**[1]: وهو الانتقال من القصة إلى الخطاب، وهو متن الحكاية في صورة المبنى الحكائي، المكتوب الذي ينقل من خلاله الراوي رؤيته إلى المروي له، وهي الترجمة عن الغير ويحوي المروي عدة أحداث وشخصيات ضمن الخبر الواحد، وتقوم الشخصيات على أسماء لها وجود واقعي (شخصيات مرجعية)، ويرتكز المسرود في الترجمة على شخصية رئيسة هي الشخصية المترجمة.

يركز الراوي على أهم ما يميز المترجَمين، وفي أثناء ذلك يقوم بمهمته المعرفية حيث يدرج النص الشعري ضمن ترجمته، فينفتح الجنس النثري على الجنس الشعري، ويقوم الشعر بأدوار عديدة في النص الترجمي على ثلاث علاقات: إما أن يوازي النص الشعري النص النثري، أو يوضحه ويشرحه، أو يوسع من شكله السردي وهو ما يظهر في أمرين: تنشيط الصراع الدرامي عبر جنس آخر مثل الرسالة والخطبة، استيضاح معالم الشخصيات.

بني النص المروي وفق ترتيب محدد يتدرج تدرجًا واضحًا من الأحداث الأهم إلى الأقل أهمية، فالشخصيات -المؤثرة في الزمن التاريخي- تظهر عند الراوي رمزًا لصناعة الأحداث وتسلسلها، فالصوت الذي سيسمع أولًا: صوت المترجَم، وستظهر الأصوات الأخرى من خلال الترجمات الأخرى اللاحقة فيكون الحدث

(1) ينظر: إبراهيم، عبدالله، السردية العربية ص ١٢.

وفق أكثر من منظور مما يسمح بتعدد الأصوات وتداخلها، فالمعتمد بن عباد يحضر في ترجمات أخرى بسرد من منظور مختلف عن ترجمته المستقلة الواردة في الكتاب.

حددت مقولات مقدمة الترجمة المرتكزات الأساسية للسرد وهو ما يذكره الفتح في مقدمة الكتاب:" واستثبت في انتقاء من أثبت، وانتخبت ما جلبت"[١] لا يعتمد الفتح الترتيب الزماني، قدر اعتماده استدعاء الذاكرة، وهي عملية انتقائية تناسب النص الأدبي المنتخَب الذي يبحث عنه، وكذلك استدعاء النص الأدبي المكونات السردية لا العكس.

**–الزمان والمكان:** تعتمد مكونات السرد على عدة عناصر تسهم في تقريب الرسالة بين المترجِم والمترجَم، ومنها الزمان والمكان ففي الزمان يصوغ الراوي ترجمة تنقل الحكاية المنطوقة إلى خطاب، فالزمن في الخطاب خطي ثابت، بينما في الحكاية يسمح بتعدد الأحداث[٢]، يسرد الراوي ترجماته دون التفات إلى الخط الزمني، فالأحداث غير مرتبة، بلا إحالات تاريخية واضحة يُستند إليها في كثير من المرويات، وراوي الفتح لا يلتزم بالترتيب الزماني للأحداث بل يقدم ويؤخر ويذكر ويحذف. يظهر زمن الحكاية في الخبر مكونًا رئيسًا لا يستطيع الراوي الاستغناء عنه فهو يذكر التاريخ والوقت وجميع الفضاءات الممكنة لإثبات صدق الخبر، ويأخذ المكان أهميته باتصاله بالزمان الذي يهتم له الراوي وبما أنه في صدد تقديم سيرة للآخرين فإن الآخر له زمان ومكان يحسم غيريته، فالخبر غالبًا يبدأ بذكر للمكان وهذا المكان يضيق بعد اتساع فهو الأندلس ثم المدينة ثم ما هو أضيق من ذلك، ويحضر المكان الأليف/والآبد، والمكان الواسع/والضيق بحسب الشخصية وامتدادها التاريخي

---

(١) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٤٥.

(٢) يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م، ص ٧٣.

وتأثيرها الزماني والمكاني، لكن المكان يصبح فضاء حين نرتد من خصوصية الترجمة إلى الوراء إلى أن يكون النص السيري الذي كتبه الفتح هو نص مكاني بمجمله، له فضاؤه الخاص حيث هو الأندلس بمقوماتها المكانية والزمانية والبشرية، وهكذا يتخلق بين يدي الراوي أمكنة يتنقل فيها وينسج فيها حكاياته، وتتقابل فيه شخصياته رغم تباعدها في خط الترجمة وتباين مستوياتها الاجتماعية والتأثيرية، ولكنهما يلتقيان في فضاء واحد لقاء تخييليًّا أو يلتقيان لقاء شكلت ملامحه اللقاء الواقعي الذي حضره الفتح أو سمع به. يقول في ترجمة أبي الحسن بن اليسع "ولما وصل لورقة، استدعى صاحب الوزارتين القائد أبا الحسن بن اليسع في ليلته"[١]، ويقول كذلك على لسان الفقيه ابن سراج "حضر مع الوزراء والكتاب بالزهراء"[٢]، وقد يوغل في الوصف المكاني، حين يحكي قصص من يترجم لهم من ذلك وصفه للبحيرة الكبرى التي تعد مدخلًا لخبر ذخر الدولة مع المعتمد: "وهو على البحيرة الكبرى، والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهرًا، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا، وقد أرجت نوافذ الند، وماست معاطف الرند، وحسد النسيم الروض، فوشى بأسراره وأفشى أحاديث آسه وعراره، ومشى مختالًا بين لبات النور وأزراره"[٣]، يعتمد الراوي الدمج بين المكان والمترجَم، واستظهار خصائصهما المتشابهة أو المتباينة: يقول عن حكم المعتصم: "هذا على انكماش ولايته، وقلة جبايته، فإن نظره لم يزد على شبر، ولم يجد الغمام منه على يانع ولا نضر؛ لأن أكثره منابت شيح، ومهامه فيح"[٤].

---

(١) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٦٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ٦٥.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ١٤٧.

**–الشخصيات:** والشخصيات عند الفتح ذات وجود تاريخي، وهي تجعل النص قابلًا للسرد، ويستعين الفتح بتقديم شخصيته من خلال كلماتها فهو يحكي خبرًا عنها ثم يورد بيتًا لها يعكس أبعادها النفسية والأخلاقية. وهي الفاعلة في الحدث، تبث الحوار وتستقبله، وتخلق الصراع، وتتداخل الشخصية الثانوية معها في ذات الخصائص، وتتفاعل تبعًا لتحركات الشخصية الرئيسة، ويرتكز في ذلك على التبديل بين الشخصيات فجاءت على النمط الآتي:

- شخصية رئيسة تقابلها شخصية ثانوية.
- شخصية رئيسة تتحول إلى شخصية ثانوية، وتتحول الشخصية الثانوية إلى رئيسة. وهنا يصبح المتحكم موقع الشخصية من السرد نفسه فالسرد للشخصية سرد لحياتها وأفعالها.

ويقدم الراوي شخصياته من خلال أسلوب مباشر يبدأ هذا منذ مطلع الترجمة التي لا تخفي المبالغة في مدح الشخص أو ذمه، أو من خلال راوٍ آخر، أو من خلال وصفها لنفسها في عبارات لها، أو بأسلوب غير مباشر وذلك من خلال تصرف الشخصيات التي تعطي انطباعا عنها، وحيث يتيح لها الحرية في عرض نفسها والتعبير عن مكنونها. ويذكيها بتتبع علاقة الشخص مع عائلته وبيئته ما بين الأسرة والجماعة والقبيلة، وكيف انسجم المترجَم معها إما بسخط أو رضا، مدح أو ذم.

**–الحدث:** قدم الراوي الحدث بعدة أنساق راوح بينها أهمها نسق التتابع حيث تروى كل قصة بأحداثها من غير أن تتداخل مع أجزاء أخرى وهذا عائد إلى مجموعة أسباب منها طبيعة الترجمة التراثية، والتركيز على اتساق الأخبار فيما بينها، وحين

يدونها فإنه لا يوردها كما وقعت في وجودها الواقعي، بل ينقلها إلى التخييل الفني، بلغة شعرية تقبل التأويل، وبناء عليه فإنه يتحكم بالحدث أيضًا فيضيف ويحذف ويقدم ويؤخر باستعمال تقانات الزمن السردي، مع المحافظة على التسلسل إذ تؤول الأحداث في نهاية الأمر إلى الحدث الأهم وهو العقدة الكبرى في حياة الشخص المترجَم، والراوي يتدرج في حياة الشخصية، ولا يتوقف عند الطفولة والذكريات الأولى التي يهتم بها كتاب السيرة الذاتية بل إنه يكتب الغير بناء على المنعطفات الجليلة والتوقف عند الأحداث الكبرى، إلى أن تتوقف بالموت. إن استرجاع الفتح للأحداث لا يسلم من تهافت الذاكرة وخطأ الخلط وضرورات النسيان ومزالق الأهواء ولكنه يتحرر من وطأتها بإضافة السند وتأكيد شهادة الوقائع والأحداث، واسترجاع التاريخ من موقعه ومشاركته في الحدث وهكذا تتحقق استعادة الحكي، ولذا يذكر صفات المترجَم وخصاله، بوصفها تمهيدًا من منظور المؤلف، ثم يورد بعدها الأخبار لتأكيد هذا المنظور. وقد ظهر هذا في استرجاعه الأخبار المفصلية من حياة الشخص وتحويلها إلى حكاية تتخللها أبعاد الشخصية، وحواراتها وأبياتها ومقولاتها الأدبية.

**–المترجم له/المروي له**[1]: هو من ترجم الراوي من أجله، وبه اعتنى المؤلف، وقد يكون داخل خطاب السرد وخارجه، حقيقيًّا وغير حقيقي، فردًا أو جماعة، والمروي له غير ظاهر، وهو مروي له خارج الخطاب السردي ولكن هذا السرد يتوجه إلى المروي له العام وهو عند الفتح مروي له صاحب مكانة اجتماعية، فهو في مقدمة القلائد يتوجه بمروياته إلى أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين: "رأيت أن أخدم مجلسه العالي بزف الكتاب إليه، وأشرف محاسنها بمثولها بين يديه"[2]، وفي

(1) ينظر: إبراهيم، عبدالله، السردية العربية، ص ١٢.

(2) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٤٧.

المطمح يجيب طلب الوزير أبي العاص حكم بن الوليد: "ندبني إلى أن أجمعها في كتاب، وأدركني من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه وكتابة ما حث عليه فأجبت رغبته"[١].

يمكن ملاحظة حضور المروي له الظاهري حينما يروي الفتح قصصًا على مروي له داخل الترجمة نفسها، والمروي له يستمع للراوي وهو يتحدث، وقد يكون مرويًا له واحداً أو أكثر من ذلك، وفي الأغلب فإن الراوي في تراجم الفتح يكون راويًا ومرويًّا له في الوقت نفسه.

يظهر مما سبق اشتمال كتاب قلائد العقيان على جوانب سردية مهمة استعملها مؤلف الكتاب لتسهم بتقنياتها في كتابة سيرة الغير كتابة سردية توظف مكوناته وتراعي أطرافه.

## سرد الآخر

تكتب سيرة الغير عن آخر غير الذات، وهي تصدر عن الوعي بالاختيار، وآلياته، وإن التزم ابن بسام معاصر الفتح في ترجماته بالمرجعية الجغرافية الأندلسية، فإن الفتح يقدم بمنزلة الشخص وتأثيره، مع ضرورة كونه أندلسيًّا، فلم يترجم للوافد إلى الأندلس[٢]، ولم يورد أخبارًا عن المشرق كما فعل ابن بسام[٣].

لا يمكن تجاوز المترجَمين دون النظر إلى مقولات الذات والآخر، فالغير هو الآخر المختلف على مستويات متعالقة مثل التجاور أو العمر أو العرق أو المهن أو اللغة أو الدين أو الثقافة. ويعتبر الآخر موقع مخالفة للأنا والنحن، فهو لا يملك

---

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ١٤٨.

(٢) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ١٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق، المقدمة ش.

الأجداد أنفسهم، ولا اللغة نفسها، وذلك في ظل وعي الإنسان بذاته وبمحيطه القبلي والجماعي[١]، وهو في كثير من الأحيان ينظر إليه على أنه عدو، وأقل قدرة[٢].

**أ- تصنيف المترجَمين:**

أنشأ الفتح بن خاقان كتابه وهو يعلم أن مداره الآخرون، تدفعه مخاوف وقوع الأدب بيد الامتهان، وحاجته إلى منقذ يخلصه، ويضمن عبوره للأجيال، والفتح بوصفه أحد المنقذين سيكشف الآخرين الذين أفسدوه. فالترجمة عمل مبني على حاجات تضاف إلى حاجة الذات الخالصة للكتابة الأدبية، أسهم فيها دخول الأندلس حقبة جديدة على يد المرابطين إثر انتصار كبير في معركة الزلاقة، أي أن هناك استعلاء طبيعيًا دافعه الانتصار على العدو، إضافة إلى مبدأ فك التبعية، والمنافسة مع الآخر المشرقي، ووقوفًا ضد (بضاعتنا ردت إلينا) التي تجعل الذات تتحسس وجودها وتنظر إلى الآخرين بغية تسويغ الانتصار والهزيمة، والتبعية والاستقلال، والقوة والضعف، من منطلق أنه "لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب ومغلوب"[٣].

---

(١) ينظر: فارو، جان، الآخر بما هو اختراع تاريخي، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٩٩٩م، ٥١.

(٢) ينظر: هارلي، فيلهو، مفهوم ومواريث العدو، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٩٩٩م، ص ٥٦. والبزري، دلال الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٩٩٩م، ص ٩٩.

(٣) البزري، الآخر المفارقة الضرورية، ص ١٠٣.

تُعد بنية المجتمع الأندلسي مركبة متنوعة، وبروز ظاهرة أدبية تنظر للآخر وتقترب منه جعلت الآخر بعد اطلاعه عليها يطالع نفسه، فهو آخر في الترجمة، أنا في وعيها وهو من خلال الآخر يعود إلى نفسه، فهو آخر وفق المخيال والخطاب الذي تنتجه الأنا والنحن[1].

ولذا تعددت مستويات حضور الآخر في التراجم غير أن اللبنة الرئيسة فيها تتمحور حول الموقع الاجتماعي مع ذكر صفات تختص بهذه الطبقة، والصفات تتكون من مجموع التراجم، وعليه فهي صفات للفئة لا الأشخاص، وفي الآتي ستحضر هذه الملامح جلية، لنقف عليها من توزيع الفتح بن خاقان ترجماته على أربع طبقات:

**الأولى: تراجم الملوك:**

تتعلق تراجم الملوك والرؤساء بزمن المرابطين الذين دخلوا الأندلس وقضوا على ملوك الطوائف، وسيترجم الفتح لأشخاص عادوا المرابطين، وهم في الوقت ذاته يُقدَّمون إلى رجل مرابطي وهو إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، ابن الرجل الذي فتك بملوك الطوائف، هؤلاء الملوك هم: المعتمد بن عباد، وابنه الراضي، والمتوكل على الله، والمعتصم بن صمادح، والحاجب ذو الرئاستين، ورئيس مرسية محمد بن طاهر، الأول أسره المرابطون، والثاني والثالث قُتلا، والرابع توفي في أثناء قتالهم، والخامس جابههم وحافظ على ملكه، أما الأخير فقد واجه المعتمد بقيادة ابن عمار، والذي سيتكرر حضوره في أغلب تراجم الشخصيات الستة. ويحضر جميعهم طرفًا في تراجم الطبقة

[1] للاستزادة حول هذه القضية ينظر: لبيب، الطاهر، صور الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ص ٢١.

إضافة إلى أنهم أبطال ترجمة مستقلة[١]، وقد يتداخلون فيما بينهم كما فعل في موقف جمع بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح، فأورد في ترجمة كل منهما رأيه في الآخر[٢].

ولم يلتق الفتح بالرؤساء باستثناء الأخيرين، فإن وُلد الفتح عام ٤٨٠هـ، فإن المعتمد توفي ٤٨٨ هـ، والراضي ٤٨٤ هـ، والمتوكل ٤٨٧ هـ، والمعتصم ٤٨٤ هـ، بينما الحاجب ٤٩٦ هـ، وابن طاهر ٥٠٧ هـ.

قدم الفتح في ترجمات هذه الطبقة بذكر صفاتهم مجملة، ثم أورد أخبارًا عنهم، فهو يترجمهم من وجهة نظر غيره، الذين يخبرونه بحكايات عن المترجَم، أما من أخبره فإنهم أشخاص يتفاوتون في المنزلة، وهم جميعهم من النخبة فهم على سبيل المثال: وزراء مثل أبي بكر بن القصيرة[٣]، وابن القبطرنة[٤] وأبي محمد بن عبدون[٥]، وأبي خالد بن يشتغير[٦]، وأبي عامر بن سنون[٧]، وأبي جعفر بن سعدون[٨]، وأقارب مثل أخ المعتمد ذخر الدولة[٩]، أو المعتد بن المعتمد الذي يخبره بأخبار أخيه

---

(١) مثل ابن اللبانة وابن عمار، وأبي المطرف بن الدباغ وابن حسداي.

(٢) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٧٠.

(٣) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٥٤.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٧) ينظر: المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٨) ينظر: المصدر السابق ، ص ١٦٠.

(٩) ينظر: المصدر السابق، ص ٥٦.

الراضي[١]، وأدباء مثل ابن اللبانة[٢]، وفقهاء وقضاة: مثل ابن زرقون[٣]، وأيوب بن أمية الفقيه[٤]، وأعداء مثل من قتل المتوكل على الله[٥]؛ فهؤلاء على صلة وثيقة بالمترجَم، وهم يضفون على كتابة الفتح الصدق والأمانة، وفي أثناء ترسيخه الوثوق بمدوناته يورد قصصًا دون أن يبين من أخبره إياها موهمًا بالإجماع على صحتها دون الإشارة إلى من أخبره ونقلها إليه.

إن هؤلاء الرؤساء من مستوى واحد، أصحاب حُكم، فبدأ ترجمته للمعتمد والراضي والمتوكل والمعتصم بلفظة (ملك)[٦]، وجمعتهم خصال مشتركة؛ بيت شريف، ونسل عريق، وفيهم شجاعة وهمة، وطموح إلى الرئاسة، عنيدون فيها، متعلمون ومتأدبون، غاية في الكرم والعطاء والبيان والبلاغة، أرباب أنس وشراب وسمر، ويتميز بعضهم مثل المعتمد بالتأثير على الجماهير وعدم قبول الوشاية[٧]، ومن عيوبهم: الغرق في اللذة مثل المعتمد[٨]، والجزع عند لقاء العدو مثل ابنه الراضي[٩] وحدة المزاج والانتقام مثل ذي الرياستين[١٠].

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص ١١٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ٥٧.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص ٥١، ١١٠، ١٢٠، ١٤٦.

(٧) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٥٢، ٧٣ ،٩٠.

(٨) ينظر: المصدر السابق، ص ٨٢، ٨٦ ، ٨٨.

(٩) ينظر: المصدر السابق، ص ١١٤.

(١٠) ينظر: المصدر السابق، ص ١٥٨.

تتكرر في هذه الفئة سمات، منها: البنوة، وصورة الابن فيها قلقة، كما في ترجمة المعتمد مع والده المعتضد[١]، والراضي ووالده المعتمد[٢]، وابن المعتصم بن صمادح[٣]، وهي تكشف عن العلاقات داخل تلك الأسر الملكية.

يستعمل الفتح بنية المبالغة في تراجم هذه الفئة، حين يستدعى الشخصيات والأماكن ويقارنها مع المترجَم لإثبات تفوقه، يقول في وصف عصر المعتمد "فأصبح عصره أجمل عصر وغدا مصره أحسن مصر"[٤]، وفي وصف قصر البستان: "أربى على الخورنق والسدير، وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير"[٥]، وفي الحصن الزاهر وأن فيه: "ما لم يكن بحلب لبني حمدان، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان"[٦]، وعن قصر الشراجيب: "وقصر الشراجيب هذا متناه في البهاء والإشراق، مباه لزوراء العراق"[٧]، والفتح بهذا لا يورد لحقائق فحسب، بل يتفاعل بذاتيته.

ترجم الفتح لرجال حاربوا دولة المرابطين، وأبان كثيرًا من فضلهم تأكيدًا على توخيه الحقيقة من ناحية، وتكريسًا لقوة المرابطين وبأسهم وهيمنتهم على أطراف الدولة من ناحية أخرى، مما يعني أن وقت كتابة الترجمة يقيد نظرة الفتح للماضي وسرده.

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص ٨٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ١١١.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٦.

(٦) المصدر السابق، ص ٩٤.

(٧) المصدر السابق، ص ١١٢.

**الثانية: تراجم الوزراء والكتاب والبلغاء**

ينوع الفتح في أسلوب خبره عن طبقة الكتاب والبلغاء، فيخبرُ الفتحَ وزير عن وزير، يخبره أبو المطرف خبر ابن عمار، ويخبره أبو عامر بن الطويل خبر ابن لبون، والوزير المصري خبر عامر ابن الفرج وغيرهم[١]، أو تختفي صيغ الإخبار كما في ترجمة ابن زيدون والوزير أبي عامر، وأبي عمر الباجي، وأبي بكر بن القصيرة، وأبي المطرف بن الدباغ وغيرهم؛ فقد التقى الفتح بهم، وتعامل معهم.

يصوغ الفتح خبره عن مترجَمي هذه الطبقة في قالب سردي ويدرجها في تعداد النماذج النثرية أو الشعرية من غير تطرق لسياقاتها، وقد يكتفي من القالب السردي بعبارته المكرورة: "وله في كذا"[٢]، وقد يصل الأمر في بعض تراجمه إلى الاكتفاء بالمقدمة التعريفية بالمترجَم دون قصص أو أخبار، ثم يورد البيت والبيتين له كما فعل مع أبي محمد عبدالرحيم بن عبدالرزاق[٣]، وأبي القاسم بن أبي بكر[٤].

ينطبق على أصحاب هذه الفئة عنوان الفئة التي أُدرجوا فيها فهم وزراء، أو كتاب، أو بلغاء، وهي طبقة تحاول الارتقاء، ووسيلتها قدرتها البارعة في الكتابة، وعليه فإنهم يمثلون الطبقة التي تلي طبقة الرؤساء، فهم وزراء أو بمنزلة الوزراء حسب المنظور الاجتماعي، كان هذا قُبيل معادلة الفقهاء للرؤساء في تراتبية الدولة المرابطية.

يمتاز أصحاب هذه الفئة بقدرتهم على تصريف القول والبلاغة، وهي عونهم في جميع المواقف[٥]، وقد اكتسبوا جراء ذلك هيبة الوزارة، التي قد تفوق في بعض

---

(١) ينظر ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٥٧، ٢٩١، ٢٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٢، ٤٢٢، ٤٣٠.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ٤٤٥.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ٤٨٤.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص ٢١٠، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٩٧، ٣٠٠.

الأحيان ما كان لدى الملوك والرؤساء من هيبة[١]، ولديهم اشتغال بالعلم مثل الكيمياء والتنجيم[٢]، ويميلون إلى الأنس والسمر والتنزه والمدام والعلاقات الاجتماعية[٣].

وينحدر بعضهم من بيت فضل وعراقة في الوزارة والعلم[٤] وكافح بعضهم حتى وضع لنفسه مكانةً بين بني زمنه[٥]، وهي طبقة معرضة لسهام الحقد والحسد، ولذا يُنكَر عليهم ويُحَط من قدرهم، ويُتنَكر لهم[٦] وهم يعيشون على قلق المنزلة، مما يدفع ببعضهم إلى أن يكونوا أكثر حقدًا وأقل ثقة بمن حولهم وذلك لاضطرارهم الخوض في صراعات معقدة في ظل المنافسات العالية[٧]، أو أن يرفضوا عروض تولي مناصب أخرى مثل القضاء[٨]، وقد أدى هذا إلى استغلالهم المواقف والفرص بما أوتوا من تصرف في الكلام، أما حين يملكون زمام الأمور فإنهم ينقلبون على رؤسائهم ويغدرون بهم كما فعل ابن عمار وأبو عبدالله بن الخصال[٩] ويتبعون شهواتهم، ويميلون إلى الغلمان والنساء بخلاف ما عرف عنهم من حكمة وعفة تظهر في كتاباتهم[١٠]، وقد أثرت محاولة استرضاء من فوقهم على علاقتهم بمن حولهم أو أقل

---

(١) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٨٩.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ٤٤٥.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ٢٥١، ٢٥٧، ٣٨١، ٤١٨، ٥٥٠.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ٢٤٩، ٢٩٧، ٣٦٧، ٤٢٩.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص ٢٥٣، ٣٠٥، ٣٢٢، ٤٩٣.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص ٣٧٧، ٥٣٨.

(٧) ينظر: المصدر السابق، ص ٢١١، ٤٦٦.

(٨) ينظر: المصدر السابق، ص ٤٦٢.

(٩) ينظر: المصدر السابق، ص ٢٥٤، ٥١٩.

(١٠) ينظر: المصدر السابق، ص ٢٥٤، ٣١٨، ٤٠٠، ٤٩٣، ٥٠٥.

منهم فعاشوا في حيرة وتناقض، فكانت نهاياتهم وخيمة مثل نهاية أبي المطرف بن الدباغ[١].

**الثالثة: تراجم أعيان القضاة والفقهاء والعلماء**

تعد هذه الفئة ما قبل الأخيرة من فئات الفتح، وعددهم ثمانية عشر رجلًا ارتبطوا بالعلوم الفقهية والقضائية، ومع كثرتهم إلا أن هذه الفئة ترجمت لهم تراجم مختصرة مقارنة بغيرهم فمعدل ترجمة الواحد منهم في المتوسط ألف كلمة، أما فئة الملوك فبلغ متوسط عددها خمسًا وثلاثين ألف كلمة، وفئة الوزراء والأدباء بلغ متوسطها ألفًا وستمائة كلمة. ويعود ذلك لأمرين: قلة الأحداث الشخصية مقارنة بما يحدث للملوك والوزراء، وقلة الإنتاج الأدبي لهم مقارنة بما ينتجه الكتاب والأدباء. واكتفى بنقل ما ورد عنهم من شعر ونثر إلا ما ندر، ويحكي أخبارهم التي وقف عليها وهنا يقتصر على ما سيثبته لهم بعبارته "وقد أثبت له"[٢] أو أخبره بها أحدهم مثل ترجمة الوزير القاضي أبي الحسن بن أضحى[٣].

تعد هذه الطبقة أقل من سابقتها، فالوزير الكاتب أعلى منزلة من الوزير الفقيه، ولذا جاءت فئة الفقهاء بعد فئة الكتاب، وينحدر أصحاب طبقة الفقهاء من بيوت علم وشرف، كما أنهم يمثلون الذروة في منظومة الفقه والنظام القضائي، وهم من أعلام المذهب المالكي، وأكثر ما تتصف به هذه الجماعة التأثير على الجماهير، وهم بتعبير ابن خاقان يرتبطون بألفاظ مثل إمام وأئمة وإمامة[٤]،كما يقول عن الفقيه أبي محمد غانم بن الوليد المخزومي: "أما الأدب فكان محض

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٦٠٦، ٦١٦، ٦٣٠، ٦٤٢، ٦٩٠.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ٦٤٧.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ٥٩٩، ٦٠٨، ٦١٢، ٦٣٦، ٦٤٨، ٧٠٨.

شريعته"[١]، ويبذلون عمرهم في طلب العلم من أجل تحقيق هذه المكانة والمحافظة عليها[٢]، وقد يصيب هذه الفئة الجلف والاستعلاء في معاملة الناس، فيظهر عليهم ما ظهر عند أبي مروان بن سراج: "كان يضجر عند السؤال فما يكاد يعيد، ويتعجن غيظًا على الطالب حتى يتبلد ولا يستفيد"[٣]، والعجب أن بعضهم عاقر الخمر إدمانًا[٤] وجمع صفات سيئة مثل الهوس والشك[٥]، ومنهم من قصر نفسه على الأمراء دون غيرهم تزلفًا، ولذا كثُر تجولهم وتحولهم[٦]، ومنهم من يزَهِّد من الدنيا زهدًا في غير موضعه، ويعكف على نفسه معتزلًا لأنه لم يحصّل مراده[٧].

**الرابعة: تراجم نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء**

قسم الفتح طبقاته بناء على توافر الأدب في كل طبقة، والتزم بالوضع الاجتماعي فجعل الملوك الأدباء في الدرجة الأولى، ثم الوزراء الأدباء، ثم الفقهاء الأدباء، وأخيرًا الأدباء. معنى هذا أن هذه الفئة أشد ما يميزها هو أدبها، وهو يجد ذاته هنا أكثر مما يجدها مع فئة أخرى، لقد تواصل مع هؤلاء الأدباء تواصلًا مباشرًا دون قيود، وها هو يكثر من استخدام كلمة أخبرني يقصد من لسان المترجَم مباشرة، يقول عن ابن خفاجة: "أخبرني لما أقلع عن صبوته، وطلع ثنية سلوته..."[٨] وفي أثناء الكلام تظهر لغة المآخاة والقرب ولغة لا تدور إلا بين الأحباب والخلان ومحبة

---

[١] المصدر السابق، ص ٦٠٨.

[٢] ينظر: المصدر السابق، ص ٥٩٩، ٦١٠.

[٣] المصدر السابق، ص ٦٠٦.

[٤] ينظر: المصدر السابق، ص ٦١٥، ٧١٠.

[٥] ينظر: المصدر السابق، ص ٦٧٥.

[٦] ينظر: المصدر السابق، ص ٦٢١.

[٧] ينظر: المصدر السابق، ص ٦٢١.

[٨] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٧٤٠.

ومراسلات[١]، ويتكرر هذا الأمر في تراجم هذه الطبقة حيث يكون الفتح قد سمع والتقى بالشخصية المترجَمة فتكثر لديه كلمة أخبرني أو ما يدل علي الاتصال بلا وساطة[٢]، كما يعلو فيها صوت العتاب ما بين شعر ونثر، يعاتبهم ويعاتبونه[٣]، فإن لم تكن الترجمة بإخبار الفتح بما رآه، فإنها مجموعة حكايات تدور بين كان وكان، بدون سند أو إثبات، وتظهر فيها المبالغة وعدم التحرز[٤].

إن أهم ما يميز هذه الفئة هو تربعها على قمة الإبداع الشعري، وهم في غالبهم بذلوا جهودًا من أجل ترسيخ اسمهم الإبداعي ولعل ما تتفق فيه هذه الطبقة هو المستوى الأخلاقي المتقارب، بين مجالس اللهو والشراب، والنساء والغلمان، ومنهم من هو عبثي[٥] يتقرب الواحد منهم من أحد الأعيان بشعره ويخدمه فيسود مجلسه بما أوتي من بيان وبلاغة وتصوير لا نظير له [٦]. وهم يتقنون فنونًا أخرى، ويغلب عليهم الاشتغال بالأدب وإتقانه[٧]، وهذه الفئة أكثر الفئات توجعًا وحزنًا وفهما للوجود وإحاطة به[٨]، وقد سعت هذه الفئة للارتقاء إلى الطبقة الأعلى اجتماعيًّا، وهم يبذلون في سبيل ذلك الممكن وغيره، أظهرت ذلك الأخبار، والأبيات التي استشهد بها على ذلك، وهي طريقة غير مباشرة في كشف خللهم وتناقضهم.

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٥١، ٨٨٣، ٨٩٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٤١، ٨٧٠، ٨٩١.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٤٤، ٧٤٦.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٧١.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٦٨.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٣٩، ٧٦٧، ٧٧٦، ٧٩١، ٨٠٩.

(٧) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٩١، ٨٠٩، ٨٤٢، ٩٢٨، ٩٣١.

(٨) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٧٥٣، ٧٥٥، ٧٥٦، ٨١١، ٨٢٠، ٨٦٣، ٩٠٢، ٩١٠.

**ب- الآخر عبر الآخر:**

نعثر في أثناء هذه التراجم على آخر غير آخر المترجَم، وهذا الآخر قد يكون فردًا أو جماعة، ففي نماذج من الأفراد نجد آخر مختلفًا: أولًا: **الأفراد:** في أثناء ترجمة المتوكل يظهر الوزير ابن الحضرمي وهو ظالم مستكبر ظهر للمتوكل قبح أفعاله "واحتذائه النجم وانتعاله"[١]، ومثله أبو الحزم بن جهور: لا يقبل عذرًا ولا يستعطف ولا يغفر[٢]، وهنا يكون الفتح صريحًا في وصف هذا الآخر الذي تلتبس حياته بالآخر الذي يسرد ترجمته. ثانيًا: **الجماعات:** من ذلك وصفه أهل قرطبة: وهم آخر مختلف في المكان، ومختلف في السلطة، سعى المعتمد بن عباد لضمها تحت جناحه فلم يوفق، يقول الفتح عنهم: "لم يكن في منازلتها قائد، ولم يكن لها إلا حيل ومكائد، لاستمساكهم بدعوة خلفائها، وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها"[٣]، "وهيهات كم من ملك كفنوه بدمائه، ودفنوه بذمائه، وكم من عرش ثلوه، وكم من عزيز أذلُّوه"[٤]، وأهل سرقسطة: آخر مختلف ويحكي عنهم قصة ابن عمار معهم: "فلما رأى غباوة أهلها، وتكاثف جهلها، وواصل منهم من لا يعلم قطعًا ولا وصلًا"[٥]، والعدو الشمالي النصراني: وهو مختلف مكانًا وعقيدة ولغة، فهو محارب وظالم ومؤذ ومنتقم من العروبة والإسلام[٦]، والسودانيون المغاربة: مختلفون عرقًا وجغرافية، وهم انتهازيون نفعيون[٧]، واليهود: وهم غير مقبولون في المراتب

---

[١] المصدر السابق، ص ١٣٣.

[٢] ينظر: المصدر السابق، ص ٢١٠.

[٣] المصدر السابق، ص ٦٧.

[٤] المصدر السابق، ص ٦٨.

[٥] المصدر السابق، ص ٢٥٦.

[٦] ينظر: المصدر السابق، ص ٧١، ١٧١، ١٧٣.

[٧] ينظر: المصدر السابق، ص ٨٢.

العالية، يظهر ذلك حين يترجم لابن حسداي: "وقد كانت الذمة تقعده عن مراتب أكفائه، وتجد في طموس رسمه وعفائه وتصرفه تصريف المهيض، وتقعده في ذلك الحضيض، حتى ألحقه الله بأقرانه وأقاله من متجر خسرانه"[1]. وغير ذلك مما يدخلنا في تراجم متعددة، وسير عديدة، وموقف واضح للمؤلف تجاهها، بوصفها آخر في مواجهة للأنا والنحن، لكنها تنطق بلسان الجماعة التي ينتمي إليها الفتح.

نخلص من هذا إلى أن حضور الغير في تراجم قلائد العقيان على صورتين: الأولى: تقسيم ترجماته إلى طبقات وهذه الطبقات تعبر عن مضمونها وتعكس الوضع الاجتماعي، وهي مقيدة في صور وهيئات معينة فرضها عليها الفتح بما يحسم غيريتها، والثانية: ظهور عوالم من الغير في أثناء حديثه عن الغير ليعبر عنهم وفق منظور المروي له/المترجم له.

[1] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٥٤٥.

## سرد الذات عند سرد الغير

يعد الفتح بن خاقان مؤلف التراجم، والسارد الذي يسردها، وسرده يتكئ على ضمير المتكلم/الذات في أثناء ترجمته عن الغائب، وهو ما يندرج تحت مشروع الفتح الذي أعلن عنه بوصفه وثيقة تقدم الغير: "أظهرت... ودللت... واستثبت... وانتخبت... وشنفت ما صنفت"[1]، فهناك علاقة وثيقة بين المؤلف والسارد تؤكدها خطبة الكتاب، هذه العلاقة أخفت أنساقًا تقصي وتحاكم وتميز ضد المختلف، لكن المضمر في مواضع كثيرة يتحول إلى معلن وإلى صراحة تنبئ عن موقف العصر من الآخر الذي سيقدمه الفتح بن خاقان بجمل جمالية تخفي في طياتها أزمات الذات (الفتح) والجماعة الصغرى (فئات المجتمع) والجماعة الكبرى (الأندلسيون المسلمون) تجاه الآخر المختلف والمغاير. وعليه فإن الفتح يسرد سيرته من خلال كتابة سيرة الغير، وذلك في العلاقات الآتية:

### أ- من المجتمع إلى المؤلف:

لم يشفع ما قدمه الفتح بن خاقان من عمل ضخم للمكتبة الأندلسية في الكتابة عنه وترجمته، فترجمته شحيحة بالمقارنة إلى ما خلفه، وقد لاحظ ذلك من درسه ودرس كتبه[2]، وأهملته المصادر المعاصرة له مثل البغية للضبي المتوفى ٥٩٩هـ، والصلة لابن بشكوال المتوفى ٥٧٨هـ.

توارد من ترجم للفتح على ثلاثة أمور: تهتكه وخلاعته، خلافه مع ابن باجة، ومقتله الشنيع. تحضر أول إشارة عند ابن القاضي عياض المتوفى ٥٧٥هـ في كتابه:

---

(١) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٤٥.

(٢) ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٨، ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ١٥.

التعريف بالقاضي عياض المتوفى ٥٤٤هـ، وفيه ذكر قصة إقامة الحد على الفتح بن خاقان، وقصتين تتبع القصة الأولى، تعين ابن القاضي عياض على قضاء دانية وهو في سن الأربعين تقريبًا[١] وذلك قبل سنة ٥٧٠هـ[٢]، هذا يفضي إلى أنه ولد تقريبًا سنة ٥٢٥هـ، والفتح توفي ٥٢٩هـ بعدها بحوالي أربع سنوات، أي أنه في الرابعة من عمره حين توفي الفتح بن خاقان.

التقى ابن القاضي عياض بابن بشكوال وقرأ عليه كتابه الصلة[٣]، كما أن ابن بشكوال اتصل بالقاضي عياض وترجم له[٤]. ثم جاء ابن الأبار وأتبع كتاب الصلة لابن بشكوال بكتاب سماه التكملة، ولم يذكر فيه الفتح بن خاقان، وإنما ذكره في كتابه الآخر معجم أصحاب الصدفي بترجمة موجزة ذكر فيها أنه "لم يكن مرضيًا، وحذفه أولى من إثباته"[٥]، وقد علل المقّري المتوفى عام ١٠٤١هـ أنه لهذا السبب لم يذكره في كتابه التكملة[٦]، وروى في أزهار الرياض الآتي: "من مناقب الإمام القاضي

---

(١) محمد، أبو عبدالله، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق: محمد بن شريفة، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ١١.

(٢) ابن الأبار، محمد بن عبدالله، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبدالسلام الهراس، لبنان: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م، ١٥٩/٢.

(٣) ابن فرحون، إبراهيم بن علي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، ٢٦٦/٢.

(٤) ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق: السيد عزت العطار، القاهرة: الخانجي، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م، ص ٤٢٩.

(٥) ابن الأبار، محمد بن عبدالله، المعجم في أصحاب الصدفي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ص ٣٠٨.

(٦) ذكر ذلك في المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: سعيد أعراب، وعبدالسلام الهراس، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٠م، ٩٨/٥، والمقّري، شهاب الدين

أبي الفضل عياض، الداخلة في أعمال بره إقامته الحد على الفتح بن عبيد الله صاحب القلائد، وذلك أنه قصد مجلس قضائه مخمرًا"[١] دون أن ينسبها مبينًا أن منقبة إقامة الحد أمر يؤجر عليه القاضي عياض، وهي إحدى مناقبه، ثم أورد قصة منسوبة إلى محمد بن عياض ابن القاضي فحواها أن أحد أصدقائه أخبره أن والده بعد أن أقام الحد على الفتح بعث معه ثمانية دنانير وعمامة[٢] وأنه نفسه —الابن– أُخبر من مقرب من الفتح أن الفتح أراد أن يسقط اسم القاضي عياض من قلائد العقيان بعد أن أقام عليه الحد، وأن صاحبه نصحه بألا يفعل ذلك لأنه إن فعل سيسأل الناس عن سبب فعلته، ويأتيهم خبر إقامة الحد على الفتح، وهو ما لا يريده الفتح[٣]، وقد أخذ المقّري هذه الأخبار من كتاب ابن القاضي عياض[٤]، لكن الابن في كتابه التعريف ذكر أنها "من نوادر أخباره التي اضطره الشرع إليها إقامته حد الخمر على الفتح..."[٥]، ثم يكمل المقّري بعد استطراد طويل أن إقامة الحد هو الحق الذي لا غبار عليه[٦] ثم يقول عن الفتح "لا يمل من المعاقرة والقصف، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره"[٧]، هذه العبارات التي ذكرها المقّري

---

أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر أخبار وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م، ٣٥/٧.

[١] المقّري، أزهار الرياض، ص ٩١.

[٢] ينظر: المصدر السابق، ص ٩٢.

[٣] ينظر: المصدر السابق، ص ٩٣.

[٤] ينظر: محمد، أبو عبدالله، التعريف بالقاضي عياض، ص ١١٢.

[٥] المصدر السابق، ص ١١٢.

[٦] ينظر: المقّري، أزهار الرياض، ص ٩٧.

[٧] المقّري، أزهار الرياض، ص ٩٨، وقد ذكر المقّري الكلام نفسه في نفح الطيب، ٢٩/٧.

مأخوذة بنصها من كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ[١] وقد نقلها المقّري في كتابيه، ثم استشهد المقّري بعد عبارة لسان الدين بقول ابن الأبار السابق الذكر.

أخذ لسان الدين بن الخطيب قصة الخمر والعقوبة كما هي من ابن عبدالملك المراكشي المتوفى في ٧٠٣هـ صاحب كتاب الذيل والتكملة[٢]، وغيرها عن ما رواه صاحب الرواية الأصلي وهو ابن القاضي في كتاب التعريف بالقاضي عياض.

أما القصة الثانية فقد ذكرها المقّري وهي قصة الفتح مع ابن باجة، وهي أن الفتح ذكر في أحد المجالس صلة الأمراء له، فسخر منه ابن باجة وكذبه بأن قال له: ومن صلتهم لك الزمردة التي على شاربك، وكانت تبدو فضلة خضراء من أنف الفتح، ولذلك حقد عليه وهجاه[٣] وكذا وردت في الإحاطة.

إذن فالمقّري أخذ في ترجمته للفتح عن ابن القاضي بنصه في كتابه أزهار الرياض، وعن ابن الخطيب بنص ابن الخطيب الذي أخذ عن ابن عبدالملك في كتابه نفح الطيب.

أما قصة مقتله فحافلة بالمفارقات وهي أن الفتح كان مقربًا من إبراهيم بن يوسف هو الأخ الأصغر لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين[٤] وكان الفتح

---

(١) ينظر: ابن الخطيب، محمد بن عبدالله، الإحاطة في أخبار غرناطة، بيروت: دار الكتبة العلمية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٩/٤.

(٢) المراكشي، محمد بن محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، ومحمد بن شريفة، وبشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٢م، ٤٤٤/٣.

(٣) ينظر: المقّري، أزهار الرياض، ص ٩٨

(٤) ينظر: المراكشي، ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبروفنسال، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ٧٨/٤.

"يدل عليه وينادمه"[١] ولإبراهيم بن يوسف هذا ألف كتابه، وأهداه إياه، وهو محب للأدب كما يظهر من سيرته، فقد قرب الفتح وأنشد فيه ابن خفاجة شعره، وتأدب ابنه على عدد من العلماء والأدباء وهو أبو بكر بن إبراهيم الذي تولى سرقسطة وقرب الأدباء فامتدحه ابن باجة[٢] وجعله أبو يحيى وزيرًا له، ثم ظهر منه سوء جعل أبو بكر يقربه على عيبه كما حكى الفتح: "وحمله على ما كان يعتقد فيه من المقت، واستعمله على ما يقتضيه خلق الوقت"[٣] أقول: ربما كان لما فعله ابن باجة مع ابن إبراهيم بن يوسف ما إذا هذا التحامل من الفتح على ابن باجة. وجدير بالذكر أنه وصف المرابطين بالتسرع والعنف، إحدى هذه الصور ما حدث مع المتوكل على الله الذي دجت أيامه وذوت غصونه، وأنفذ جور الأيام فيه ظلمه[٤]، وأنه لما قام يصلي قبل أن يقتلوه حدث أن "اختلط افتتاحه بسلامه، فبادروه بأسنتهم في الصلاة، وناهشوه مناهشة الطير لقتيل الفلاة"[٥]، والمرابطون في عنفهم كليث هجم على فريسته من ملوك الطوائف[٦].

تقول الروايات إن من سيقتل ابن خاقان فيما بعد هو أخ إبراهيم بن يوسف، وهو الأمير علي بن يوسف الذي أصدر أمره بقتله فقتل في أحد فنادق مراكش كما ذكر ابن دحية المتوفى عام ٦٣٣هـ[٧] وقد نقلها عنه ابن خلكان الذي توفي سنة

---

(١) المقّري، نفح الطيب، ٧٢/٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٦٨٢/١.

(٣) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٩٣٥.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص ١٢١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٧) ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون، بيروت: دار العلم للجميع للطباعة والنشر، ١٩٥٥م، ٢٥/١.

٦٨١هـ[١]. وقد قرأ ابن الأبار بخط من يثق به: "توفي ذبيحًا بفندق لبيت من حضرة مراكش، ودفن بباب الدباغين منها ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة"[٢]، وقيل بعدها بثلاثة أشهر "عبث فيه بأحد بيوت الفندق المذكور، وما شعر به إلا بعد ثلاث من مقتله، عفا الله عنه"[٣].

أورده العماد المتوفى ٥٩٧هـ في الخريدة، ونقل كلامًا عن قاض اسمه الرشيد بن الزبير المتوفى ٥٦٢هـ كتب كتابه جنان الجنان وروضة الأذهان، وقام ابن الزبير بامتداح ابن خاقان في بلاغته وتصانيفه، ثم قال: "كان يضع من نفسه بشدة تبدله، وكثرة تنقله، وغضه من ذوي الرتب، وإساءة الأدب على الأدب، وتحليه من الخلاعة بما تعزف عنه نفس كل ذي عقل رصين، واشتفافه من الدنايا إلى ما لا يرضاه أهل المروءة والدين، وهو متوسع في النثر قليل البضاعة في النظم ولم أجد له منه ما يدخل فيما يدخل لأهل طبقته"[٤]، كما ذكره ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ في معجم الأدباء بقوله: "بذيء اللسان قوي الجنان في هجاء الأعيان، وكان متهم الخلوة فيما بلغني"[٥]، أما ابن خلكان فقد امتدحه ثم قال: "وكان مخلوع العذار في دنياه"[٦] ناقلًا هذه العبارة عن ابن دحية الكلبي المتوفى ٦٣٣هـ[٧]، وابن سعيد المتوفى ٦٨٥هـ

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢٤/٤.

(٢) ابن الأبار، المعجم في أصحاب الصدفي، ص ٣٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، تونس: الدار التونسية للنشر، الطبعة الثانية، ٢/ ٥٣٨.

(٥) الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ٢١٦٣/٥.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٣/٤.

(٧) ينظر: ابن دحية، المطرب، ٢٥/١.

في المغرب ذكر فضله، ثم بين أنه عادى ابن باجة ثم جاء بمنقول عن سمط الجمان أبو عمرو عثمان بن عليت المتوفى ٥٦٠هـ: "أَن التكلُّم فِي شأنه وإعمال القلم فِي وصف تجلفه وخذلانه إخلال بالبيان وإضاعة للزمان فآثرنا فِي أمره الاختصار وتمثلنا قَول الْقَائِل كل الثِّمَار وخل الْعود للنار"[١]، فهذه كلها مصادر تنقل عن مصدر رئيس واحد (ابن القاضي).

والجدير بالذكر هو أن أول المصادر التي ترجمت للفتح هي سمط الجمان والجنان فالأول توفي صاحبه سنة ٥٦٢هـ والثاني ٥٦٠هـ، بينما توفي الفتح عام ٥٢٨هـ وهذا ما يعقد مهمة التثبت من لقائهم بالفتح، إضافة إلى فقدان هذه المصادر.

إن من العجب أن يقوم الفتح بن خاقان بوضع مصدر من أهم المصادر الأندلسية، ثم بعد ذلك لا تجد له ترجمة وافية، فما الذي جعلهم يتحاشون ابن خاقان بخلاف غيره من المترجمين مثل الضبي وابن بشكوال وابن الأبار. يبدو أن السبب شخصيته: "وما اشتُهر به من الوقوعِ فِي الأعراض صده عن أن يكون علما من أعلام كتاب الدولة المرابطية"[٢]، ويظهر من هذا الكلام أن هناك شرطا غير الشرط البلاغي والأدبي لم يتوفر في الفتح، ولو توفر لنال أعلى درجة في الدولة، وقد تكرر مثل هذا الكلام كثيرًا في تراجم الفتح.

---

[١] ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥م، ١/٢٦٠.

[٢] ابن سعيد، المغرب، ١/٢٦٠.

ب- **من المؤلف إلى المجتمع:**

يقول الفتح في خطبة القلائد: "ولما رأيت عنانه في يد الامتهان، وميدانه قد عطل عن الرهان، وبواتره قد صدئت في أغمادها، وشعله قد قذيت برمادها"[١] إذن هناك آخرون ولجوا الأدب لكنهم لم يوفوه حقه، وهؤلاء لن يتطرق إليهم الفتح، وسيكتفي بغيرهم، آخرين يملكون زمام الأدب، ولا يميزهم غير الفتح المقتدر المكين، وبينما يعد الفتح بذلك، يسقط في فخ إصدار الحكم على الآخر الجيد حين يقول: "تداركت منه الذمام الباقي، وتلافيت له نفسًا بلغت التراقي، وانتخبت منه لمعا كالسيوف المرهفة، والشفوف المفوفة قد ثقفت تثقيف القداح، وأبرزت كالناهد الرداح. وانتقيت من توليده المخترع، وتجويده المستبدع، لُمحا يهز لها الزمان عطفه انتشاء، وتروق لها النجوم طلعت عشاء"[٢] يوحي حديث الفتح بن خاقان بأن ما لدى الآخرين غير جيد كله، وأن الجيد منه يستطيع الفتح بما أوتي من قوة وقدرة أن يستخرجه، وهو لما أوتي من مزايا سينتخب منه ويبرزه وينتقيه، وهو في كل ذلك واثق بتحمل المسؤولية التي على عاتقه، والتي يمثل من خلالها الأمير الوالي أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، ويمثل لسان الدهر والمجتمع الذي يتحدث عنه. وقد أكد المؤلف أن المترجَم شخصية بشرية مثلنا فيها الخير والشر ولا نتعمد إصدار الأحكام عليه، وإنما نتتبع نموه وتطوره وتحولاته السيكولوجية وعلاقاته بالآخر والصراع معه، وعدم جموده مع التقدم الزمني، فابن عباد الملك ليس هو السجين في أغمات.

---

[١] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٤٤.

[٢] المصدر السابق نفسه.

أدت العلاقة المتوترة بين طموح الفتح، وتعرضه لصنوف الحسد والحقد، والامتهان إلى أن تتحرك فيه رغبة إخراج كتاب تراجم عن أجود ما كتب في أدب الأندلس، وأهم من كتبوه، وهو في أثناء ذلك يجد الفرصة مواتية لأن يكون حاضرًا ضمن سيرتهم، وهذا شق جديد لم يذكره من ترجم عنه. فيحضر الفتح في التراجم عبر الأحداث والاستشهاد فيكون مشاركًا أو بطلًا في الأخبار التي يوردها، لينتقل موقف السارد من الخارج إلى الداخل، فيكتب السارد ذاته وهو يكتب غيره، ويظهر صوت أنا الفتح أثناء تقديمه للآخرين، ويمزج في ترجمته لهم ترجمته لذاته، وكتابته لسيرته تضمر الترجمة الأدبية، فالترجمة لا تحفظ الغير، وإنما تحفظ الذات أيضًا وتكتب لها عمرًا جديدًا يحقق الخلود، وقد أكد الفتح ذلك في أثناء حكاية أخباره وقصصه مع المترجَمين، وفيها يظهر جزء كبير من ذاته، ومن صورها:

**أولًا– إظهار القدرة الثقافية:** نستطيع تبين إلحاح الفتح على إظهار معرفته التي شهد بها من كتب عنه، حين ذكروا تتلمذه على أهم علماء الأندلس ومجالستهم وإجازاتهم إياه كما ذكر ابن الأبار ولسان الدين بن الخطيب من أمثال السلمي والبطليوسي وابن العربي وابن اللبانة وابن زرقون وغيرهم[1]، ومن ثم ظهر حرص الفتح على استظهار الأخبار والسماع والإجازات، فظهرت في اقتباسه آيات من القرآن الكريم، ليس للاستشهاد بها، بل لأنها تحقق مراد الفتح في مكتوبه، يقول عن المعتصم: "وأرسل دموع أهلها دما، وملأ نفوسهم رعبًا، وأخذ كل سفينة غصبًا"[2]، ويقول عن الراضي بن المعتمد: "ملك تفرع من دوحة سناء، أصلها ثابت وفرعها

(1) ينظر: ابن الأبار، المعجم، ص ٣٠١، وابن الخطيب، الإحاطة، ٤/٢١٠.

(2) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٧١.

في السماء"[١]، وعن ابن الحضرمي على لسان ابن المتوكل: "ما حمله إلا البطر، وأنه كان له في ذلك أرب ووطر، فكانت حاجة في نفس يعقوب قضاها وإرادة أنفذها وأمضاها"[٢]، واقتباس من الأمثال: يقول عن الحال بعد سقوط الخلافة: "صار الملك دعوى، وعادت العافية بلوى، استنسر البغاث، وصحت الأضغاث"[٣]، ويقول عن لسان المعتمد المنهزم: "وقد عزم على أفظع أمر، وقال بيدي لا بيد عمرو"[٤].

**ثانيًا–هيمنته على المشهد الرئيس**: يظهر منذ المقدمة أن الفتح يعتد بذاته اعتدادًا كبيرًا، وأن جزءًا غير يسير من الكتاب سيكون عنه، ذكر في مقدمة القلائد: "الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا، وشاد مثواه في أجنتنا، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فملكناه، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب فسلكناه، فصار لنا الكلام عبدا يجيب إذا ناديناه، وسهما يصيب الغرض إذا رميناه"[٥] تظهر هذه المقدمة الاتجاه الذي سيسلكه الفتح في ترجماته، إذ تدور حول مواقفه منها ومدى رضاه عنها، خاصة وهي تدور في فلك الكلام الذي صار عبدًا له، ولذا ذكر المقّري ناقلًا عن ابن سعيد نقد فضلاء الأندلس للفتح في خطبة القلائد لاشتمالها الخطأ[٦]، وامتدادًا لهذه المقدمة سيظهر الفتح في ترجمات الآخرين شخصًا رئيسًا ففي إحدى الترجمات يتحول السرد إلى سيرة ذاتية للفتح: "وفي أيام مقامي

---

[١] المصدر السابق، ص ١١٠.

[٢] المصدر السابق، ص ١٣٢.

[٣] المصدر السابق، ص ٨٠.

[٤] المصدر السابق، ص ٨٩.

[٥] المصدر السابق، ص ٢.

[٦] المقّري، نفح الطيب، ٣٥/٧.

بالعدوة اتفقت بيني وبين أبي يحيى بن محمد... مودة استحكم تواخيها، وشدت أواخيها، وغدونا بها حليفي صفاء وأخلاص... فوقع بيني وبينه في بعض الأيام تنازع أدى بنا إلى الانفصال، وتعطيل تلك البكر والآصال، ثم نمى إلي عنه قول ضاق به ذرعي، وأجتث منه أصلي وفرعي، فكلما صدني عن الرحلة صممت، ونكثت من عرى التلوي ما كنت أبرمت، وبعد انفصالي علمت أن ذلك القول غدا زورًا"[١]، وفي ترجمة الوزير أبي جعفر يستطرد بالحديث عن حياته: "حللت حامة بجانة ليلًا، وجفونها بالظلام مكتحلة، ومتونها من الأنس ممحلة، فتشوفت مستوحشا، ووقفت منكمشًا لا أجد أين أريح، ولا أرى مع من أستريح..."[٢] ويكمل في تفصيلٍ لما حدث له مستطردًا في ذكر ما جرى بينهما.

**ثالثًا–تعليقه على بعض المواقف وتدوين آرائه الشخصية حول الأحداث:**

إن سيرة الفتح غير المرضية المتجسدة في القصص المذكورة عنه حول شرب الخمر وإقامة الحد عليها بحكم من القاضي عياض[٣]، وكذلك اتهامه بالكذب وسخرية ابن باجة منه جعلت موضعه خفيضًا بين معاصريه[٤]، وقد سعى الفتح لنفي ذلك عنه عبر إظهار ملكاته وتدوين مواقفه مما يؤكد حضوره الدائم وينفي عنه ما وسم به من خلاعة وسوء، وقد أكد حبه لذاته وأن تخلد قصته بالذكر الحسن دون الذكر السيء في قصة معروفة ذكرها ابن الخطيب مفادها أن الفتح عزم على إسقاط اسم القاضي من كتابه قلائد العقيان، فنصح بألا يفعل، ولما سأل عن السبب قيل له: "قصتك معه من الجائز أن تنسى، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة، إذ كل من ينظر

---

[١] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

[٢] المصدر السابق، ص ٤٨٦.

[٣] للاستزادة ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٠٩/٤.

[٤] للاستزادة ينظر: المصدر السابق، ٢١٠/٤.

في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن ذلك، فيقال له، اتفق معك كيت وكيت فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر" فتبين للفتح إصابة منطقه فأبقى عليه ولم يحذفه[١]. وقد وجد الفتح ملاءمة تضمين تراجمه آرائَه الذاتية حول الأشخاص والأحداث، فحضرت بما يتجاوز حضور المترجَم، ففي أثناء ترجمته للمعتمد يستطرد في ذم باديس بن حبوس رئيس غرناطة، يقول عنه: "ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم... وما زال متقدا في مناحيه مفتقدا لنواحيه، لا يرام بريث ولا عجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل، إلى أن وكل أمره إلى أحد اليهود واستكفاه، وجرى في ميدان الإهمال حتى استوفاه"[٢]، وكذلك حين يترجم لوزير الكاتب أبي محمد بن عبدالغفور، يقول: "كنت نويت ألا أثبت له ذكرا، ولا أعمل فيه فكرا، وأقطعه الإهمال مسرحا..."[٣] ومع ذلك فإنه يورده لحسناته، متجنبًا التعصب والباطل فيقول: "فقد علم الله أني أنحرف عن التعليل، وأغفر الكثير للقليل، وأتغافل عن الهنات، لذوي الهيئات، وآخذ الحسنة من أثناء السيئة"[٤] وأهم من ذلك في ترجمته لابن باجة يرجع فيقول: "وله نظم أجاد فيه بعض إجادة، وشارف الإحسان أو كاده"[٥]، وكل ذلك يؤكد أن المترجِم سيتناول جانبا من المترجَم لا كل الجوانب وهي ليست قطعية فالمترجَم قد يكون مغايرًا عند المترجمين الآخرين. لكننا سنلاحظ رغم ذلك كيف يحضر الموقف الفردي مع ابن باجة في رسم صورة ابن باجة، فنحن نراه بعين الفتح بن خاقان، نستطيع تبين ذلك من الحكي الذي

---

(١) للاستزادة ينظر: المصدر السابق، ٢٠٩/٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٨١.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٦٧.

(٥) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٩٣٢.

يجعلنا نقرًا سيرة الفتح بدلا من ابن باجة، وموقف المتلقي من ابن باجة يولد من موقف الفتح منه. يتقارب فهم السارد من فهم المؤلف، ويتطابق موقفهما الواقعي والتخييلي داخل النص المحكي، فالسارد تعبير عن مواقف المؤلف بالأفعال والألفاظ، يُلحظ ذلك في موقف الفتح من بعض الأحداث من ذلك على سبيل المثال: تشنيعه على ابن أبي الخصال، وأبي يحيى الحاج الذي وقع بينه وبين أبي الفتح نزاع وصراع: "أبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصوما، وفي أثناء بغيهم، وخلال حربهم الوبيل وسعيهم، كانت ترد عليهم من قبله –أيده الله– كتب تحل ما ربطوه"[1]. يستعمل المؤلف في مواقف متعددة تطابق الشخصية والسارد والمؤلف، فيتحدث السارد عن الشخصية بضمير المتكلم فتكون أشد التصاقًا بها، وتصبح الشخصية المركزية في الخبر هي ذات السارد، التي تحيل وفق التسلسل الصحيح إلى ذات المؤلف.

**رابعًا–معرفته العميقة بعجز الغير**: ساهمت جرأة الفتح على تسلطه بلسانه، وقد وُسم بأنه بذيء اللسان قوي الهجاء، إضافة إلى ذلك فإن كثرة ارتحال الفتح وتبذله قادته إلى تأليف كتابه وفق نمط عجيب، ذكره جمال الدين الأكرم مفاده أنه أرسل إلى ملوك الأندلس وأعيانها يعرفهم بعزمه في تأليف الكتاب، ويسألهم إرفاق شيء من شعرهم ونثرهم، ولأنهم يعرفون منه ما يعرفون من شر ومثلبة كانوا يرسلون إليه ما يريد مع صرر من الدنانير اتقاء لشره، فمن رضي منه الصلة أحسن وصفه في كتابه، ومن تغافل عنه هجاه[2]، وهذا ما جعله قادرًا على استبطان الغير وإدراك عجزهم. وقد كتب الفتح تراجمه وهو يطالع المثل العليا، غير أن هذا المفهوم يتحول تدريجيًّا في ترجماته من إثبات التطابق مع المثل إلى ما يعتري الإنسان من ضعف

(١) المصدر السابق، ص ٥١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٩١.

وعلل، فيتدخل الفتح في وصف رغبات النفس، واضطرابها وما تشعر به، ويدخل النفس في مأزق وصراع داخلي وذلك من خلال نشر خوالج النفس والصراعات النفسية، وهو يحكي مثلا حال أبا اليسع: "فوصل وما للأمن في فؤاده وصول، وهو يتخيل أن الجو صوارم ونصول، بعد أن وصى بما خلف، وودع من تخلف"[١]، أو من ترجمة ابن زيدون: "وكان له مع أبي الوليد بن جهور تألف أحرما بكعبته وطافا، وسقياه من تصافيهما نطافًا... إلى أن وقع له طلب أصاره إلى الاعتقال، وقصره عن الوخد والأرقال، فاستشفع بأبي الوليد وتوسل، واستدفع به تلك الأسنة المشرعة والأسل، فما ثنى إليه عنان عطفه، ولا كف عنه استنان صرفه... "[٢]، وكما فعل مع الحاج أبي عامر: "دخل مصر وهو سار في ظلم البوس، عار من كل لبوس... فنزل بأحد شوارعها، لا يفترش إلا نكده، ولا يتوسد إلا عضده"[٣].

**خامسًا–ما يقوله المترجَم/الآخر عن المؤلف الذي يكتب الترجمة:** لعل دافعًا خفيًّا للفتح في قلائده يظهر حين نتبين قدره الذي أغفله معاصروه، ولم يذكر إلا بعد وفاته، فالفتح ذو حظ في البلاغة وتصريف الكلام، كما شهد بذلك ابن الأبار: "كان قائمًا على الآداب مرسلًا بليغًا"[٤] وابن سعيد بقوله: "وَالْفَتْح أقدر على البلاغة وَكَلَامه أَكثر تعلقاً بالأنفس"[٥]، ولسان الدين ابن الخطيب: "آية من آيات البلاغة، لا يشقّ غباره، ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني

---

[١] المصدر السابق، ص ٦٤.

[٢] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٠٩.

[٣] المصدر السابق، ص ٨٩١.

[٤] ابن الأبار، المعجم، ص ٣٠٠.

[٥] ابن الخطيب، الإحاطة، ٤/ ٢١٠.

وثيقها، لعوبًا بأطراف الكلام، معجزًا في باب الحلى والصفات"[١] وقد آثر الفتح أن يبين منزلته هذه عن طريق المترجَمين الذين لاقوه بالضرورة، وحينها يسرد الفتح وصف المترجَمين له ورأيهم فيه، ففي أثناء التراجم نجده حاضرًا في مكاتبات الأشخاص الأعيان من ذلك ما كتبه له ذو الوزارتين أبو الحسن بن الحاج: "واحدي أبا النصر، مثنى الوزارة، كيف أستسقي لموضع احتلالك، وحسبه صوب نوالك، وأمتري الغمام لمنزلك، وقد كفاها فيض أناملك..." [٢]، ومثله الفقيه أبو محمد بن سماك الذي كتب للمؤلف يقول: "وإن أبا نصر ناظم سلك البلاغة، وقائد زمام البراعة سحبان في زمانه، وقس في أوانه، وابن المقفع في مكانه، والجاحظ في بيانه إذا أوجز أعجز وإذا شاء أطال وأطلق من البلاغة العقال، وأتى من ذلك سحرًا حلالًا، وسقاه عذبًا زلا، لا أصل للكتابة أصولا، وفصل أبوابها تفصيلا، وحصل أغراضها تحصيلًا"[٣] فالفتح يكتب سيرة غيره، وغيره يكتبون سيرته، وقد ألف الفتح سلسلة تراجمه لحفظ ما لهم، كما يحفظون ما له.

يظهر مما سبق أن سيرة الفتح عند مجتمعه غير مرضية، فقاومها بكتابة سيرة غيره، التي اقتحمها الفتح فوضع في أثنائها سيرته الذاتية، متفرقة مبثوثة علّها تصلح شيئا من سيرته المعروفة.

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٤/٢٠٨.

(٢) الحموي، معجم الأدباء، ٥/٢١٦٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٤٤.

## الخاتمة

عالج البحث حضور سيرة الذات في كتابة السيرة الغيرية عند الفتح بن خاقان في كتابه القلائد، وانتهى إلى عدد من النتائج:

- قيام تراجم الفتح على فن السيرة الغيرية، وقد توافر فيها الشكل اللغوي، والموضوع المطروق، وتطابق المؤلف والسارد، وعدم التطابق بين الشخصية الرئيسة والسارد.
- توفرت البنية السردية في تراجم الفتح: المترجِم، والترجمة، والمترجَم له، وحضرت بنمط محدد ومتصل على طول التراجم.
- انبثقت سير الغير عند الفتح من المجتمع/نحن، والذات/أنا عبر دوائر ومستويات مختلفة، فانعكست على تراجمه بالتنميط للطبقات، أو الجماعات القومية، وهي تعبر عن نحن/أنا وتصوراتها.
- تسربت سيرة الفتح أثناء سيرة الغير، وحضرت مغطية سيرته وشخصيته ونبوغه.
- تجسدت سيرة الفتح في عدة صور أهمها: حديث الشخصيات المترجَمة عنه، وبيان موقفه والتعليق بآرائه، وحضوره شخصية رئيسة في عدد كبير من التراجم، وإظهار قدراته، واستبطانه الغير، ومعارفه الواسعة.

## مراجع البحث


- إبراهيم، عبدالله، السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- ابن الأبار، محمد بن عبدالله، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبدالسلام الهراس، لبنان: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م.
- ابن الأبار، محمد بن عبدالله، المعجم في أصحاب الصدفي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ابن الخطيب، محمد بن عبدالله، الإحاطة في أخبار غرناطة، بيروت: دار الكتبة العلمية، ١٤٢٤هـ.
- ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق: السيد عزت العطار، القاهرة: الخانجي، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م.
- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن عبيدالله، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين خريوش، إربد: الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن عبيدالله، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون، بيروت: دار العلم للجميع للطباعة والنشر، ١٩٥٥م.

- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥م.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وجماعة، بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، تونس: الدار التونسية للنشر، الطبعة الثانية.
- أمين، أحمد، تراجم الرجال في الأدب العربي، مصر: مجلة الثقافة، العدد ٤٠، أكتوبر ١٩٣٩م.
- البزري، دلال، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٩٩٩م.
- جنيت، جيرار، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: سعيد أعراب، وعبدالسلام الهراس، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٠م.
- عباس، إحسان، فن السيرة، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

- الغامدي، صالح معيض، كتابة الذات–دراسات في السيرة الذاتية، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- فارو، جان، الآخر بما هو اختراع تاريخي، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٩٩٩م.
- لوجون، فيليب، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- ماي، جورج، السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي وعبدالله صوله، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط ٢٠١٧م.
- المبخوت، شكري، سيرة الغائب سيرة الآتي، تونس: دار الجنوب للنشر، ط١٩٩٢م.
- مجموعة من اللغويين، المعجم الوسيط، القاهرة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية.
- محمد، أبو عبدالله، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق: محمد بن شريفة، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- المراكشي، ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبروفنسال، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- المراكشي، محمد بن محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، ومحمد بن شريفة، وبشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٢م.
- المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر أخبار وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م.

- هارلي، فيلهو، مفهوم ومواريث العدو، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٩٩٩م.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

## References


- ebrahym, 'ebdallh, alsrdyh al'erbyh bhth fy albnyh alsrdyh llmwrwth alhka'ey al'erby, byrwt: almrkz althqafy al'erby, altb'eh alawla, 1992m.
- abn alabar, mhmd bn 'ebdallh, altkmlh lktab alslh, thqyq: 'ebdalslam alhras, lbnan: dar alfkr lltba'eh, 1995m.
- abn alabar, mhmd bn 'ebdallh, alm'ejm fy ashab alsdfy, thqyq: ebrahym alabyary, alqahrh: dar alktab almsry, altb'eh alawla, 1410h.
- abn alkhtyb, mhmd bn 'ebdallh, alehath fy akhbar ghrnath, byrwt: dar alktbh al'elmyh, 1424h.
- abn bshkwal, khlf bn 'ebdalmlk, alslh fy tarykh a'emh alandls, thqyq: alsyd 'ezt al'etar, alqahrh: alkhanjy, altb'eh althanyh, 1955m.
- abn khaqan, abw nsr alfth bn 'ebydallh, qla'ed al'eqyan wmhasn ala'eyan, thqyq: hsyn khrywsh, erbd: altb'eh alawla, 1431h/2010m.
- abn khaqan, abw nsr alfth bn 'ebydallh, mtmh alanfs wmsrh altans fy mlh ahl alandls, thqyq: mhmd 'ely shwabkh, byrwt: m'essh alrsalh, altb'eh alawla, 1403h/1983m.
- abn khlkan, shms aldyn ahmd bn mhmd, wfyat ala'eyan wanba' abna' alzman, thqyq: ehsan 'ebas, byrwt: dar sadr, altb'eh alawla, 1994m.
- abn dhyh, abw alkhtab 'emr bn hsn, almtrb mn ash'ear ahl almghrb, thqyq: ebrahym alabyary wakhrwn, byrwt: dar al'elm lljmy'e lltba'eh walnshr, 1955m.
- abn s'eyd, abw alhsn 'ely bn mwsa, almghrb fy hla almghrb, thqyq: shwqy dyf, alqahrh: dar alm'earf, altb'eh althalthh, 1955m.
- abn frhwn, ebrahym bn 'ely, aldybaj almdhb fy m'erfh a'eyan 'elma' almdhb, thqyq: mhmd alahmdy abw alnwr, alqahrh: dar altrath lltb'e walnshr.

• abn mnzwr, jmal aldyn mhmd bn mkrm, lsan al'erb, thqyq: alyazjy wjma'eh, byrwt: dar sadr, altb'eh althalthh, 1414h.

• alasfhany, al'emad, khrydh alqsr wjrydh al'esr, thqyq: adrtash adrnwsh, twns: aldar altwnsyh llnshr, altb'eh althanyh.

• amyn, ahmd, trajm alrjal fy aladb al'erby, msr: mjlh althqafh, al'edd 40, aktwbr 1939m.

• albzry, dlal, alakhr almfarqh aldrwryh, swrh alakhr al'erby nazrana wmnzwrana elyh, thryr: altahr lbyb, byrwt: mrkz drasat alwhdh al'erbyh, t1999m.

• jnyt, jyrar, khtab alhkayh bhth fy almnhj, trjmh: mhmd m'etsm wakhrwn, alhy'eh al'eamh llmtab'e alamyryh, altb'eh althanyh, 1997m.

• alhmwy, shhab aldyn yaqwt bn 'ebdallh, m'ejm aladba', thqyq: ehsan 'ebas, byrwt: dar alghrb aleslamy, altb'eh alawla, 1414h-1993m.

• alzrkly, khyr aldyn bn mhmwd, ala'elam, dar al'elm llmlayyn, altb'eh alkhamsh 'eshrh, 2002m.

• shhab aldyn ahmd bn mhmd, azhar alryad fy akhbar alqady 'eyad, thqyq: s'eyd a'erab, w'ebdalslam alhras, sndwq ehya' altrath aleslamy, 1980m.

• 'ebas, ehsan, fn alsyrh, byrwt: dar sadr, altb'eh alawla, 1996m.

• alghamdy, salh m'eyd, ktabh aldat-drasat fy alsyrh aldatyh, byrwt: almrkz althqafy al'erby, altb'eh alawla, 2013m.

• farw, jan, alakhr bma hw akhtra'e tarykhy, swrh alakhr al'erby nazrana wmnzwrana elyh, thryr: altahr lbyb, byrwt: mrkz drasat alwhdh al'erbyh, t1999m.

• lwjwn, fylyb, alsyrh aldatyh walmythaq waltarykh aladby, trjmh: 'emr hly, byrwt: almrkz althqafy al'erby, altb'eh alawla, 1994m.

• may, jwrj, alsyrh aldatyh, t'eryb: mhmd alqady w'ebdallh swlh, alqahrh: r'eyh llnshr waltwzy'e, t 2017m.

• almbkhwt, shkry, syrh algha'eb syrh alaty, twns: dar aljnwb llnshr, t1992m.

• mjmw'eh mn allghwyyn, alm'ejm alwsyt, alqahrh: mjm'e allghh al'erbyh balqahrh, altb'eh althanyh.

• mhmd, abw 'ebdallh, alt'eryf balqady 'eyad, thqyq: mhmd bn shryfh, almghrb: wzarh alawqaf walsh'ewn aleslamyh, altb'eh althanyh, 1982m.

• almrakshy, abn 'edara, albyan almghrb fy akhbar alandls walmghrb, thqyq: kwlan wbrwfnsal, byrwt: dar althqafh, altb'eh althalthh, 1983m.

• almrakshy, mhmd bn mhmd, aldyl waltkmlh lktaby almwswl walslh, thqyq: ehsan 'ebas, wmhmd bn shryfh, wbshar 'ewad m'erwf, twns: dar alghrb aleslamy, 2012m.

• almqry, shhab aldyn ahmd bn mhmd, nfh altyb mn ghsn alandls alrtyb wdkr akhbar wzyrha lsan aldyn bn alkhtyb, thqyq: ehsan 'ebas, byrwt: dar sadr, 1997m.

• harly, fylhw, mfhwm wmwaryth al'edw, swrh alakhr al'erby nazrana wmnzwrana elyh, thryr: altahr lbyb, byrwt: mrkz drasat alwhdh al'erbyh, t1999m .

• yqtyn, s'eyd, thlyl alkhtab alrwa'ey, byrwt: almrkz althqafy al'erby, altb'eh althalthh, 1997m.